جمع وتحقيق وإعداد

آمال سفطة

عودة العشاق

البشير التلمودي

قصص

ممنوعة على من هم فوق العشرين

دار بسمة للنشر الإلكتروني

عودة العشاق البشير
التلمودي

اسم الكتاب: عودة العشّاق البشير التلمودي

اسم الكاتبة: آمال سفطة

نوع العمل: قصص

لوحة الغلاف: آمال سفطة

الرقم الدولي EBIN: 231126-284-1-16

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1445هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

كل الحقوق محفوظة

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

آمال سفطة

عودة العشاق
البشير التلمودي

قصص

ممنوعة على مَن هم فوق العشرين

جمع تحقيق وإعداد
آمال سفطة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى العزيزة باربارا كارتلاند

إمبراطورة الأدب العذري...

أرفع حصاد سنوات الجنون العذب...

البشير التلمودي

1970–1960

باربارا كارتلاند: إمبراطورة الأدب العذري

بفضل باربارا كارتلاند دلفت رواية العشق الوردي الرومانسي إلى كتاب غينيس للأرقام القياسية، بعد أن بيع لهذه الكاتبة الإنكليزية أكثر من 500 مليون نسخة من رواياتها الغرامية في أنحاء العالم وترجمت أعمالها إلى العديد من اللغات.

باربارا هي إمبراطورة أدب العذرية في العالم، ذلك الأدب الذي ينتصر فيه الحب دائما ويتزوج العشاق من الأميرات الساحرات اللواتي يأخذ جمالهن بمجامع القلوب.

تعيش باربارا في قصر وردي خرافي أشبه ما يكون بقصور عالم والت ديزني، ويبعد عن لندن حوالي أربعين كيلومترا وكل ما في القصر من أثاث ومتاع وثياب وردي.

باربارا كتبت أكثر من 500 رواية حتى الآن خلال 75 سنة. كيف استطاعت أن تنجز هذا العمل الضخم في فترة كهذه، لكي تؤسس وحدها مكتبة متنقلة تسافر عبر أعمالها إلى أنحاء العالم؟

تقول باربارا: أستاذي اللورد بيفر بروك علمني أن أكتب بسرعة وأنا لا أشطب أية عبارة وبقوة إرادتي صرت أكتب الآن أكثر من عشرين صفحة في اليوم وأربعة فصول في الأسبوع، حتى أنني أستطيع أن أنتهي من كتابة الرواية في أسبوعين. ومنذ حوالي 26 سنة حافظت على معدلات إنتاجي بانتظام من خلال إصدار 23 كتابا في السنة. إن أعمالي تحتل المرتبة الثانية في سجل أكثر الأعمال الأدبية الروائية الأكثر مبيعا في العالم.

باربارا تكتب من دون أن تلمس القلم ذلك لأنّها تعودت على تملية أعمالها.

أما عن المؤلفين من النخبة المثقفة التي تنظر إلى هذه الأعمال باستعلاء، فتقول باربارا:

لا يهمني رأيهم في رواياتي، والتاريخ يقف إلى جانبي.

ولا تندهشوا ألست الروائية الوحيدة التي لا تدع بطلة القصة تنام مع خطيبها قبل الزواج! كلا. ليست هذه قصة قديمة عفا عليها الزمن في ظل تقاليد الغرب، فمن دون معرفة وثيقة بين العروسين قبل عقد القران، يصبح الطلاق أمرا محتما ولا مفر منه بعد الزواج.

الحب خالد إلى الأبد وثمة عودة إلى رومانسية أيام زمان والحب الذي كان...

الوطن العربي – العدد 278– 803– ص. 34.

الرّؤية القصصية عند البشير التلمودي

بقلم: الأستاذ فرج لملوم

إنّ الأقصوصة فنّ أدبي يتميّز بسرعة إيقاعه وروعة إبداعه لما تتضمّنه من عناصر التّكيف لملامح التّجربة الإنسانيّة في لحظات توهّجها وأوقات تأهّبها الفيّاضة بالدّلالات المفعمة بالإيحاءات المتظافرة من أجل نحت الخطاب الأدبيّ الذي تنبع مقوّمات الجماليّة فيه من الرّؤية الذّاتية للكاتب.

فالأقصوصة وحدة بنائية متنامية من علاقاتها الدّاخلية، منفتحة على أطرها المرجعيّة.

في سياق هذه الرّؤية المنهجية، ارتأينا أن نستجلي الخصائص الفنيّة والجوانب الدّلالية في بعض أقاصيص الكاتب البشير التلمودي. وقد اخترنا منها أكثرها إيجازا سعيا إلى اختبار مدى استجابة الخطاب السّردي القصير لجدليّة البلاغ والإبلاغ.

فالمتأمّل في هذه الأقاصيص، يستشفّ هيمنة الوصف على الوحدات السّردية لاستبطان عالم الشخصيّة وبيان فعله في الوجود وانفعاله بالموجود حيث يقول الرّاوي: "أعاد قراءة رسالتها النّارية القصيرة أكثر من مرّة كأنّه يلتذّ بهذا العذاب الذي ما انفكّ يهدّ كيانه يوما بعد يوم".

فحروف الرّسالة تستحيل شظايا، أمّا جرس الكلمات فيصبح سوطا به يكون العذاب عذبا وكأنّ الكيان ينشد بين النّيران. لذلك يلوذ المرء إلى الذّكرى ويستحضر كلمات حيرى: "عيناك الحلوتان تنظران إليّ في وداعة. وشعرك الحريريّ ينسدل كشلاّل إفريقي على كتفيك". فإذا بالرّاوي يستعير من الرّومانسيّين عباراتهم ومن المتيّمين عبراتهم، لذلك "عاد إليه الحزن من جديد، وأحاطت به الهواجس من كلّ جانب". فأيّ سبيل يسلكه العاشق وقد رحل الحبيب؟

لقد أصبح الحوار الباطنيّ بديلا ينشده الرّاوي ويطوّق به شخصيّته التي تتوق إلى السّلوى دون جدوى: "وهمس في مرارة كأنّه يسألها: لماذا فعلت هذا وأنت تعلمين أنّ اليد التي أحرقتني أحبّها كثيرا؟". تلك هي سنّة العشّاق الذين يستلذّون عذابات الهوى وإن كان الكلام بينهم بمثابة العبوات النّاسفة". أو "الحوار بالأظافر".

وقد استعار الكاتب للبوح بتلك المعاني الظّاهرة المهيمنة على الخطاب المسرحيّ الذي اصطفاه حبيبا للخطاب القصصيّ. فمثلما تضطرم في أنفس الأحبّة اللّواعج، تتوطّد بين الأجناس الأدبيّة الوشائج. لذلك اصطلح عليه الكاتب "بالقصّة الحواريّة" التي تتضاءل فيها المقاطع السّردية فتكتفي بدور التّمهيد للأقوال: " بعد صمت طويل متعب، انهارت الأعصاب، احترق الفكر"، فكان بينهما هذا المقطع الحواريّ:

– " أنت لا تحبّ الحوار لأنّك تكره الحقيقة "

– " بل أكره الحديث الذي يتجاهل الحقائق".

ولقد تباينت الأقوال واختلفت الأفعال نظرا إلى تعدّد الشّخوص وتباين رؤاهم النّفسية والفكريّة.

ففي أقصوصة "المنعرج الوردي"، يكون اللّقاء بين "نادية" تلك الفتاة الخليعة، و"محمود" ذلك الطّالب المثقّف الذي يدرس في قسم علم الاجتماع ويعدّ دراسة تحليلية تعالج الأوجه المختلفة من حياة الشباب المعاصر.

فلئن اتخذت من العربدة "فلسفة"، جعل الدّراسة هدفا. فلا غرو أن يربأ "محمود" عن هذا المجون ويتهكّم من "الشّباب المجنون الذي لا يحبّ سوى الرّقص على نغمات الجاز ورنين كؤوس الوسكي".

تلك هي جدلية المكتوب والمكبوت يفصح عنها الرّاوي سالكا طرقا سرديّة متراوحة بين الخفاء والتّجلّي فالكاتب عليم بما تستبطنه الشخصيّة من "أوجاع دفينة" ويحشر شخوصه في أماكن غريبة عنها أحيانا.

فالشاب الجامعيّ "يكتب في ركن منزو من الملهى، ويكون مرمى لسهام السّاخرين من الماجنين.

أمّا "نادية" فقد وجدت في "النّادي" متعها. أفلم يشتقّ هذا المكان من اسمها؟ أليس الأدب لعبة المغنى والمعنى؟ ولئن وقعت أحداث قصّة "المنعرج الوردي" في مكان منغلق، فإنّ وقائع قصّة "بقايا صور " تجري في مكان منفتح تعانق من خلاله الواحة أحلام المترافقين بفضل هضابها وغدرانها ونخيلها.

ومثلما اختلفت الأمكنة، تباينت الأزمنة وأصبحت الفصول علامات معبّرة عن مشاعر الشخوص: " فحبّ الصّيف هو أكثر أنواع الحبّ اشتعالا". أمّا الشّتاء، فيصبح "منعرجا قاسيا" في دروب الحياة. لكنّ الحقيقة الحتمية التي تشغل الأذهان تشير إلى أنّ "الزمن قصير جدّا".

فكيف السّبيل إلى اغتنام لحظاته؟ وأيّ خصب تروى منه "الأرض العطشى" ويغيّر به جدب الواقع؟

إنّ اللّغة بديل الرّاوي عن هواجس الحياة وهمومها، فهي تستبدل جفاف النّثر بمعين الشّعر لاسيما أنّ "الأقصوصة أكثر الأشكال الأدبيّة اقترابا من كثافة الشّعر وتوهّجه وتركيزه".

لذلك عمد الكاتب إلى الصّور والأساليب البلاغيّة للتعبير عمّا يخالج وجدانه. فاستعمل التّشبيه لتجسيم حالة نفسيّة بصورة حسّية: "لقد انتظرها كما تنتظر الأرض العطشى قطرة مطر".

والملاحظ أنّ المعجم الوجدانيّ يمزج بالتأمّلات الفكريّة، فيستحيل نبض القلب قادحا للفكر: " والسّعيد في الحبّ من أخذ الأمور كما جاءته مبتسما ". إنّ من العشق لحكمة: أن تحبّ أو لا تحبّ تلك هي المسألة.

فالنص الأدبيّ حوار بين الوجدان والأذهان، بل هو مراوحة بين البلاغ والإبلاغ من أجل انبجاس الوظيفة الجمالية للنّصوص الأدبيّة.

كذلك انسابت القراءة في جداول الإبداع القصصيّ فهل تجاوزت طور الانفعال إلى الفعل؟

تلك هي وظيفة نقد النّقد...

فرج لملوم

قبل البدء

فقط... وبكلّ لطف...

أرجو من أصدقائي الكتاب الذين بدأت معهم المشوار..

وسرقتهم مثلي الأيّام...

أن يركبوا بساط الحنين الوردي...

ويعودوا بذاكرتهم الخضراء إلى ربيع العمر...

قبل قراءة هذه الورقات الورديّة...

حتى يستعيدوا صور تلك العربدة الصحّية...

وذلك الهذيان العذب الذي عشناه بكلّ التفاصيل الحارقة...

فإذا لم يقدروا على ذلك...

فلا فائدة إذن ترجى من اطلاعهم على هذه المحاولات الأولى...

في الحبّ والكتابة...

البشير التلمودي

لذّة الشوق

إنّه الآن في أشد حالات القلق...

في قمّة الاشتياق إليها...

منذ أكثر من ساعة... وهو غارق في سحر عالم وجهها الرائع...

يريد أن يعيد إلى خاطره كل ما لمسه فيها من وداعة وجمال أيّام اللقاء الماضية...

وعرف أنّه شعور غريب هذا الذي يسري في عروقه...

فيبعث فيه موجات من الحنين إلى رؤياها من جديد...

ودون أن يشعر...

ترك نظراته تقبّل قسمات وجهها المرمري على الصورة... في لذّة عارمة...

ودون أن يشعر أيضا همس كما لو كان يسألها:

– شعرك... هل تركته ينسدل كشلال حريري على كتفيك؟

آه... لو تعرفين كم أحبّها تلك السنابل الناعمة التي داعبت شفتي كلّما التقينا....

– عيناك...

هل ما زالت فيهما تلك النظرة الحالمة المليئة حبّا وأسرارا؟

لونهما الأسود... أعبده...

لو لاه لما حبّرت بياض مئات الصفحات...

ولما رسمت لك أجمل الكلمات...

– أنفك...

مازلت أحسّ أنفاسه...

نفحاته التي يرسلها في حبّ ولين وضياع... ليقول لي... أنك لي...

– شفتاك...

كقطعتي مرجان أحمر...

كورقتي وردة ربيعيّة فوّاحة... شفتاك...

وتذكّر قبلات الماضي البعيد...

على الرمال... على العشب...

فحاول إعادة الشريط الذي عاشه معها بكل التفاصيل...

لكنّه أحسّ كما لو أنّ ستائر رماديّة... وقفت في الفراغ كأنّها السراب...

تحجب عنه صور الماضي بما فيه...

وبلا جدوى...

حاول إزاحة تلك الستائر الرمادية...

فشعر كما لو أنّ إحباطا مريرا أقعده عن الخروج من بوتقة الضياع التي أصبح يعيش فيها...

وتساءل مرّة أخرى:

- " ترى هل أنّها مثله تفكر فيه أم لا..؟".

ودون أن يشعر... حاورها كما لو كانت معه:

- هل حدث لك مثل هذا... عندما تفكرين فيّ أحيانا يا عزيزتي ؟..

- إذن... لست أدري... لماذا لم أتلق أجوبة على الأسئلة التي طرحتها عليك في رسائلي السابقة؟..

- ربّما لأنّك... حين تشرعين في الكتابة... تكونين قد نسيت شيئا ما... من تلك الأشياء التي ذكرتها لك؟..

- أنصحك يا عزيزتي... بإعادة قراءة رسائلي الأخيرة...

فأنا مثلا... لا أكتب رسالة جديدة إلاّ بعد قراءة آخر رسائلك...

أفاق من شروده ليتذكر سهرته مع بعض الأصدقاء بسيدي أبي سعيد...

لم يشأ الذهاب في أوّل الأمر... لكن... إلحاح صديقه الشديد...جعله يقبل الدعوة...

عندما وصلوا... كانت الساعة تشير إلى الثامنة ليلا...

وكانت الأرجاء مكتظّة بالسيّاح... رغم ذلك ورغم ثرثرة أصدقائه... كان كالسائر في الصحراء... يخيّم عليه الصمت والقلق...

بقي صامتا... شارد الفكر... تائه البال... وشعر بالضيق يضغط على صدره... وازدادت حيرته... وأحسّ بالعجز عن تصوير حزنه وشروده وشوقه وحبّه لها...

ودون أن يشعر... توقف عن المسير...

فتعجب أصدقاؤه منه وسألوه عن سبب وجومه... وحزنه على غير عادته... لكنّه لم يوضّح موقفه...

واكتفى بأن قال:

– لا شيء... سأعود إلى البيت...

عندما تحرّك القطار عائدا به إلى العاصمة...

شعر كما لو أنّ حملا ثقيلا انزاح عن صدره...

وتمنّى لو يصل في لمح البصر إلى غرفته حتى يقف أمام صورتها...

ويعيد قراءة بعض رسائلها من جديد...

أغمض عينيه...

فأحسّ بقليل من الراحة تسري في عروقه...

وابتسم ابتسامة حزينة:

– آه... لو تعلمين يا عزيزتي... كم أنا أحبّك...

وتساءل في قرارة نفسه عن كيفية الانعتاق من هذه الوحدة...وهذا الحرمان؟..

فتح عينيه... فإذا به أمامها...

لا تقف بينهما إلاّ قطعة الزجاج الباردة...

ينظر إليها في حلم ويتذّكر...

قال يخاطبها:

– " ما أعذب أن أكون معك على انفراد يا عزيزتي...

فأنا لا أحبّك فقط...

أنا أعبدك، هل تفهمين؟

إذن لماذا لا تكتبين إليّ باستمرار؟...

وحتى إن فعلت فإنّ رسائلك قصيرة جدّا لا يمكن أن تطفئ نيران شوقي إليك...

قد تكون الكتابة مرهقة أحيانا... لكن...

ترى... هل إنّ الكتابة هي التي تتعبك ؟...

ألم تقولي إنّ ثرثرتنا من أعذب الأشياء إليك ؟...

حتى تكون رسائلنا طويلة...

يكفي أن نكتب كلّ ما يخطر ببالنا من أشياء... كما لو كنّا نتحدث..."

أشياء هامّة... وأشياء صغيرة...

تلك التي يمرّ بها العاديّون من البشر... بدون اكتراث... ويبني عليها العشاق قصورا – خرافيّة – ...

نظر في عمق عينيها طويلا... فرأى كما لو أنّها تبتسم له حقيقة لتقول له:

– " أنت لي... مهما يكن من أمر..."

فأحسّ بموجة دافئة من الاطمئنان تغمره وتعيد إليه توازنه المفقود...

وعرف مرّة أخرى أنّ حوار العشاق لذيذ حتى وإن كان صامتا...

جلس إلى مكتبه...

وفتح درج رسائلها لتلامس أصابعه وريقاتها الوردية...

وليذوب معها ليلة أخرى في فضاء وردي دافئ لا يعرف الحدود...

الحبّ والموت

رغم أنه لم يعدها بالكتابة... آخر مرة... أحسّت في قرارة نفسها أن الرسالة التي قدّمها إليها موزع البريد... وهي في طريق العودة إلى البيت... كانت منه...

أحسّت بسعادة لا توصف وهي تسرع بإخفاء الرسالة في جيبها حتى لا تراها أعين المتطفلين ...

ففي بلدة (قربص)... السكان على اتصال دائم... فهم كالعائلة الكبيرة... يعرفون عن بعضهم كل شيء...

لأجل ذلك أرادت سعاد أن تخفي مفاجأتها السارة عن كلّ الأعين...

واصلت سيرها... فإذا بها تلتقي وجها لوجه مع امرأة عجوز:

– صباح الخير خالتي زينب...

– نهارك سعيد... أين كنت؟...

– وصلت إلى السوق وها أنا راجعة إلى البيت...

– لقد رأيت موزع البريد يسلم إليك رسالة... أهي لك ؟...

قالت سعاد في شيء من الغضب المكتوم وقد تغيرت ملامح وجهها:

– آه... موزع البريد... نعم... نعم... إنّها لي...

فتقدمت المرأة منها أكثر وقالت:

– لم أكن أعلم أن لك أصدقاء خارج البلدة...

نظرت سعاد إلى الأرض قليلا... ثم شدّت على فمها ابتسامة صفراء وقالت:

– إنّها... رسالة من صديق... مجرّد صديق...

– صديق؟ وتقولين هذا بكل بساطة يا سعاد؟...

– إنّه مجرّد صديق تعرّفت عليه منذ أسابيع فقط...

قالت العجوز في مرارة:

– آه يا ابنتي لو تعلمين... عندما رأيت موزع البريد يسلّم لك الرسالة... أحسست بحزن عنيف يهزّ قلبي...

– ولماذا كلّ هذا يا خالتي... لماذا ؟...

– بصراحة... تذكرت ابني حسن...

قالت ذلك وصمتت لحظة ثمّ أضافت:

– هل تذكرين عندما كان يكتب إليك كلّ يوم رسالة ؟...

– نعم... ومازلت أحتفظ بكل رسائله للذكرى...

فابتسمت العجوز ابتسامة حزينة وقالت:

– أعرف... أعرف... لكن يبدو أن الوفاء الدّائم شيء صعب...

– بالعكس مازلت وفية للحبّ الذي جمعنا... لكن... لعلّ سعادة الأموات في سعادة الأحياء...

واغرورقت عينا العجوز بالدموع وقالت:

– عندما أعود إلى الماضي لأرى الذكريات... أتمنى على السّماء أن تعيد لي ابني الراحل... حتى أراه زوجا لك وحتى أصبح جدّة... لكن...

– لا تقلقي نفسك بالذكريات الأليمة يا خالة... مع الوقت كلّ شيء يذهب...

كان لصدى كلمات سعاد في قلب العجوز... الأثر البالغ... فقد شعرت المرأة بآلام في عروقها وبالدموع تراود أجفانها من جديد... وغشّت وجهها الشاحب مسحة من الأسى والحرمان... ولم تتكلّم !...

وشعرت سعاد بذلك... فندمت على ما قالت...

وزادت فغمرتها مسحة من الحزن حين سمعت العجوز تخاطبها قائلة:

– ماذا تقصدين يا سعاد ؟...

– لا شيء على الإطلاق...

– يبدو أن موت حسن لم يعد يعني شيئا لديك...

– بالعكس... لكن ماذا تريدين... إنّها الحياة... ولكلّ منّا نهاية مرتقبة...

قالت ذلك في عصبية ملحوظة... ثمّ اعتذرت وودّعت المرأة... وأخذت طريق العودة كما لو كان شيطان يطاردها...

– " شيء مزعج... يبدو أنّها لا ترى فيّ سوى صورة الأرملة الباكية... في حين أنّه من حقي أن أعيش شبابي وأكون سعيدة..."

عندما وصلت لم تعرف كيف دخلت البيت... ولا كيف أغلقت الباب بقوّة...

قال لها أبوها:

– ماذا حدث يا سعاد؟ أراك تلطمين الأبواب بقوّة... ماذا حدث ؟...

– آسفة يا أبي... فعلت ذلك دون قصد...

– ماذا حدث؟...

– لقد وتّرت أعصابي...

– من هاته التي وتّرت أعصاب ابنتي الغالية ؟...

– خالتي زينب... لقد أصبحت تراقب كلّ حركاتي وسكناتي...

– كيف؟ لم أفهم...

– إنّها تسمح لنفسها بذلك... لأنني كنت خطيبة ابنها الراحل...

أوه... هذا لا يطاق...

قال أبوها وقد فهم الحكاية...

– هذا شيء طبيعي يا ابنتي... وعليك أن تفهمي شعورها الدّفين... إنّه ابنها الوحيد الذي رحل بدون رجعة تصوّري...

– لكن... أنا... ما هو ذنبي؟...

– أنت أيضا على حق... لكنك تمثلين بالنسبة لها ذكرى حيّة لابنها الميّت...

فحدّقت سعاد في وجه أبيها طويلا وقالت:

– المشكلة هو أنّها تريد أن أعيش معها وسط أحزان الماضي كامل حياتي... وهذا ما لا أستطيعه أبدا...

تقدّم الأب وضمّ ابنته بكل قواه إلى صدره في حنان وقال لها:

– هدّئي من روعك يا عزيزتي...

قال ذلك... وأشار إلى رأسها وأضاف:

– لاشك أن وراء هذا الرأس الصغير... أشياء غريبة أليس كذلك ؟...

– أنا لا أخفي عنك شيئا يا أبي... بصراحة... سئمت من هذه الحكاية...

– هدّئي... هدّئي من أعصابك...

– ... أشعر بصداع عنيف وبانهيار كلّ قواي...

– أنت في حاجة إلى الراحة... اذهبي إن شئت إلى العاصمة عند عمتك سلوى... ستفرح بك كثيرا...

- لم أعد أعرف ما أفعل...

ارتمت على الفراش ومكثت كذلك لحظات... ثم أخرجت من جيبها الرسالة وبدأت تقرأ:

" عزيزتي سعاد...

رغم كل شيء... لم أستطع أن أمنع نفسي من الكتابة إليك...

أنا على يقين من أنّك تحبّينني مثلما أحبّك فلا تنسي أننا ننعم بالشباب والحرية...

ولا شيء يستطيع أن يمنعنا من السعادة...

إن الماضي ليس سوى كلمة فارغة لا معنى لها بالنسبة إلينا...

إنه لا يهمنا سوى الحاضر وحده...

أنا وأنت..." (محبك المخلص: شفيق).

قرأت سعاد الرسالة وأحست أنّ قطرات من الدّموع انحدرت بدون أن تشعر على وجنتيها...

همست كما لو كانت في حلم:

- نعم... أنا وأنت... ولكن هل مات الماضي حقيقة؟!

قالت ذلك... ونهضت لتقف قرب النافذة... تنظر إلى الأفق البعيد... تستعرض عبر خيالها ما مرّ بحياتها من أحداث...

– " إنّ كل الذين كانوا يتمنون لي السعادة... أصبحوا يدفعونني بأقوالهم إلى مقصلة الوفاء بلا أمل"...

– " الزواج السعيد... لا يقام إلا على الحبّ الخالد !..."

نظرت من خلال الزجاج إلى الجبل البعيد المغطى بالأشجار فإذا بها تتذكر قصّة لقائها مع شفيق:

– " التقيت به ذات يوم في السهل الشرقي... كنت أقوم بجولتي الصباحية وأجمع باقة من زهر الطّبيعة... وعلمت في الحين... أن الحب بدونه يذبل ويموت...".

مازالت تذكر جيدا كلماته الدافئة التي تناهت إليها أوّل مرّة وهي تنتقي بعض الزهور البريّة:

– " لقد جمعت باقة رائعة... يبدو أن الزهور في هذه السهول الخضراء... جميلة جدا..."

ورأته وهو ينحني ليقطف بدوره زهرة جميلة ليقدمها إليها في لطف ساحر...

ومضت لحظات...

وكلاهما ينظر في عيني الآخر في صمت...

لم تدر سعاد كيف تغلبت على الخجل الذي كبّل لسانها وغشاها بحمرة جذابة فقالت:

- فعلا... إنّها جميلة...

ورأته يقترب منها أكثر قائلا:

- باقة رائعة فعلا لقد أحببت دائما زهور الحقول...

وفهمت سعاد بسرعة أن تلك الكلمات... موجهة إليها هي...

فأنزلت أهدابها خجلا وقد أحست بشعور ورديّ دافئ يسري في عروقها... فاحمر وجهها ثانية...

لكنّها أرادت أن تنقذ الموقف فابتسمت وقالت في شبه همس:

- تفضل... خذها هدية مني إذن...

ابتسم لها وتردد قليلا وهو يمدّ يده لتسلم الباقة قائلا:

- أقبلها بكل امتنان... وأن كنت أفضل لو يحدث العكس...

ابتسمت بدورها وقالت:

- لكنّك أهديت لي وردة أيضا...

- شكرا على كلّ حال...

وران الصمت بينهما لحظات... إلاّ من حفيف أوراق الأشجار وزقزقة العصافير...

ألقت سعاد ببصرها نحو الأفق... أجالت به في الحقول الشاسعة الخضراء المليئة بالظلال والأضواء والألوان... فرأت رجالا كثرين يقومون بقيس الأراضي...

قالت تسأله:

– أنت مع هؤلاء العملة؟ ...

– نعم... أنا المهندس...

– مهندس؟ لماذا يقيسون السّهل؟ ...

– سنبني على ذلك الوادي جسرا كبيرا...

– والأشغال... ستدوم طويلا؟ ...

– بعض الأشهر...

ولم تدر لماذا أحسّت بالفرح يغمرها وهي تغرق في دوّامة الأحلام...

فجأة سمعته يقول لها:

– تعالي معي...

قالت في دلال مكتوم تسأله:

– إلى أين ؟...

أشار الشاب إلى تجمع سكانيّ يقع في الجهة الأخرى من الوادي وقال:

– إلى تلك القرية... الصغيرة... سأريك أين سنبني الجسر الذي سيجمع بينها وبين هذه البلدة...

وكأن ما قاله الشاب قد أعجبها... فسألته:

– يبدو أنّك تحبّ عملك كثيرا...

شدّ على شفتيه ابتسامة وقال:

- إن بناء الجسور عندي... فنّ من الفنون الجميلة...

قال ذلك واقترب منها أكثر وأضاف في لغة شاعرية:

- إن الجسر الذي يجمع بين ضفّتي نهر صغير يغني...

وفوقه فتاة جميلة تطلق الضحكات...

لمن أبدع الأشياء عندي...

قالت له كأنّها تشجعه:

- يبدو لي أنك تحسن قول الشعر أيضا ؟...

- ربّما... لكنني واثق من أن وجودك قربي هو السبب...

لم تقل شيئا لأنها أحست بالماضي يعود فجأة ليسربلها برداء الأحزان...

قال لها وقد لاحظ تغيّرها المفاجئ:

- أرى في عينيك كما لو أنّ سحابا أسود يغطّي انشراحك القديم... ماذا حدث... ؟

- وكيف فهمت ذلك ولم يمض على لقائنا سوى لحظات ؟...

- عرفت ذلك من خلال عينيك الحائرتين ومن الحزن الذي أصبح يغشي وجهك الجميل...

- ماذا تريد إنّها الحياة...

- سامحيني ربما عندك أسباب تجعلك تفضلين العزلة لكن ألا تريدين أن نكون صديقين؟

– أفضل العودة...

– لماذا؟ ممّ أنت خائفة؟

– الساعة متأخرة... وعليّ أن أعود إلى البيت...

ومرّة أخرى أصبغت الغشاوة السوداء على وجهها مسحة من الوجوم والحيرة فالتفتت إليه ونظرت في عمق عينيه من خلال بقايا دموعها ولم تنبس ببنت شفة...

قال وهو يودّعها:

– لك ذلك ما دمت ترغبين في العودة لكن أرجوك عودي إليّ غدا سأنتظرك...

ابتسمت له ابتسامة لم يفهم فحواها وانصرفت...

في طريق العودة شعرت بالأفكار السوداء تجتاح رأسها الصغير...

ولم تدر كيف جاءتها فكرة الانفصال عن الشاب وعدم لقائه مستقبلا...

واصلت سيرها في صمت وهي تتمتم في حيرة:

– " أنا خائفة فعلا...

إن ذكرى حسن تحطم قلبي وتزرع الأشواك في عروقي..."

فجأة سمعت صوتا يناديها...

التفتت فإذا بها أمام إحدى صديقات المعهد...

– أهلا ليلى... هذه أنت؟ أين كنت؟ ...

–كنت عند أمّ حسن... يا لها من امرأة مسكينة... أظنّ أن السعادة لن تلج قلبها المحطّم أبدا...

قالت سعاد تسألها وقد فهمت نواياها:

– لماذا يا ترى؟ ...

– لا أعرف... ولكن نحن أيضا لا نفرح ولن ننسى الكارثة التي لحقت بها...

– ماذا تقصدين أيضا يا ليلى؟ ...

– لا شيء، ولكن... أريد أن أقول... أنك كنت يعني خطيبة ابنها – رحمه الله– كما كنت أنا... صديقته الحميمة... أنت تعرفين هذا وتعرفين أنني كنت أحبّه كثيرا...

– نعم أعرف ذلك... ثم أنك لم تخفِ ذلك أبدا عندما كان المرحوم على قيد الحياة... لقد عملت كل ما في وسعكِ آنذاك لافتكاكه من بين أحضاني... وها أنك ترين أن لا شيء يدوم في هذه الحياة العابرة...

– فعلا لا شيء يدوم... ولماذا تقولين هذا بعصبية ؟ ...

–...

واصلت سعاد طريقها مسرعة إلى البيت وصور الماضي البعيد تراود خيالها الحائر...

فعلا... أن السيدة زينب... كانت تتمنى على السماء لو ترجع إليها سعاد حب ابنها حسن...

ذلك الحب الذي تتخيله الأمهات وترى فيه الحق الكامل لأبنائهن...

بينما كانت ليلى تشعر ببعض الانتصار... لأن في موت حسن التعاسة والحرمان لسعاد... عدوّتها اللّدودة...

وفهمت سعاد ما يدور بخلد تلك الأفعى ليلى... فقررت الاحتياط والحذر ما أمكنها ذلك... وإخفاء حقيقة علاقتها مع شفيق... عليها وعلى كل سكان البلدة حتى لا يعكّر صفو قلبها أحد من أولئك الأنانيين...

رغم إصرارها على عدم ملاقاة شفيق فقد أحسّت سعاد برغبة ملحة لملاقاته وأنها عاجزة فعلا على رفض طلبه في اللقاء...

ودون أن تشعر توجهت نحو الهضبة المجاورة حيث بدأت الأشغال بعمّالها وتجهيزاتها الضخمة تأخذ شكل المهرجان...

كانت تسير على الأعشاب الندية بين الزهور والأنوار شاردة الفكر تائهة البال وسط زوبعة من الأسئلة الحائرة:

– " ربّما كان من حقي عدم المجيء...

من يدري... ربّما كان من واجبي أن لا أفعل هذا...

لكن... من حقي أيضا أن أعيش..."

وواصلت طريقها وتفكيرها مشدود بين قوّتين متضاربتين قوّة تدفعها إليه...

وأخرى تحرّضها على العودة من حيث أتت...

ورأته من بعيد واقفا ينظر إلى الأفق في حلم... كما لو كان يفتش عنها بين... السّحب المتناثرة...

اقتربت منه... فأحس بقدومها...

ابتسم في حب وقال يستقبلها في غبطة:

– صباح الخير... صدّقيني... كنت خائفا من عدم مجيئك...

– بصراحة... فكرت في عدم المجيء...

– لو فعلت ذلك... لبحثت عنك في كل البلدة...

– أرجوك... لا تفعل هذا... يجب أن لا يعلم أحد بعلاقتنا...

تعجب من جوابها فقال:

– لماذا؟ وممن أنت خائفة؟ ... أخبريني حتى أحررك من مخاوفك وهواجسك...

ابتسمت في حزن... ثمّ جلست على الأعشاب وقالت:

– لا أستطيع... الآن على الأقلّ...

– يبدو لي أنّك تحبين شخصا آخر...

– كنت أحبّ شابا...

– وما المشكلة إذن؟ ...

– وهذا الشاب توفي منذ أكثر من ثلاث سنوات...

– ثمّ ماذا ؟...

– المشكلة هو أن أمّه والناس... لن يحملوني على الإخلاص والطهر عندما سيعلمون بعلاقتنا... هل فهمت؟ ...

جلس قربها ووضع يده على كتفيها وقال:

– هذا كل ما هنالك؟ ...

– ماذا تقصد؟ ...

– أقصد أن الحبّ خلق لكي يكلّل الأحياء لا أن يعطر الأموات... لهذا أنصحك بالنظر إلى نفسك ومستقبلك جيّدا...

– لم أفهم!

– ما أريدك أن تفهمينه يا سعاد... هو أن تفتحي قلبك لهذا الحبّ الذي أقدّمه اليوم لك... طبعا إذا كان نفس هذا الشعور متبادلا بيننا...

نظرت إليه في حلم من خلال خصلات شعرها المتهدل على عينيها وقالت:

– شيء صعب...

– سيصبح سهلا إذا أردت أنت ذلك... إن حبّك الثاني هذا يعني دخولك في أجواء جديدة ساحرة تبعدك عن العزلة والحزن...

– سأحاول...

– ما أريد أن أؤكده لك... هو أنّ دعوتي ليست مجرّد مغامرة عاطفية عابرة كما ربّما يتبادر إلى ذهنك... إنّها دعوة رسمية...

–...

وقفت كمن هزّته المفاجأة... وأخذت تنظر إلى اللاّ شيء ولم تقل شيئا...

يبدو أن ما تحمّلته من أشجان لحدّ الآن... قد بعثرته الرياح... رغم كل الظنون والأحزان...

ولم تعرف كيف تفتّح قلبها فجأة على الحياة من جديد...

وأحست بيده تشدّ على يدها في دفء وحبّ...

قال لها:

– سنبني بيتنا هناك... فوق تلك الهضبة الخضراء المطلّة على الوادي...

اقترب منها أكثر... طوقها بذراعيه وأضاف:

– ما رأيك؟ أتريدين أن أطلب اليوم يدك من والدك؟ ...

فحرّكت رأسها يمينا وشمالا وقالت:

– لا... لا تفعل هذا الآن...

– لكن لماذا؟ ...

– اترك لي شيئا من الوقت... أرجوك...

***

ومضت الأيام...

وانتهى شفيق ورجاله من بناء الجسر... فذهب ولم يحدّد يوم عودته...

وتألمت سعاد لذلك كثيرا وكادت تجنّ...

إلى أن اتصلت ببرقية منه... فتحتها في لهفة وخوف وقرأت:

– " عزيزتي سعاد... يبدو أن تفكيرك قد طال، يوم الأحد القادم سآتي إليكم لأعلن للجميع عن خطوبتنا...

لن أستطيع الانتظار أكثر... – شفيق – ".

ورفعت سعاد عينيها عن الورقة ونظرت كعادتها إلى الأفق في حلم وتحدّ... وصاحت:

– فعلا... يجب أن أصمد لكي أحصل على السعادة...

وتذكرت ما قاله لها شفيق يوما:

– " إن الجسور السيئة البناء... لا تعمّر طويلا... ولهذا يجب أن يكون جسرنا صلبا حتى يبقى إلى الأبد !... "

وجاء اليوم المنتظر...

كان يوما من أيام الربيع المشرقة الفوّاحة...

لكن سعاد لم تفهم جيّدا سرّ ذلك الشعور الذي تملكها خصوصا حين جلست تتشمّس في حديقة البيت...

كانت ترغب في خوف قدوم شفيق... لكنّها كانت حائرة؟!! وتساءلت:

– ترى هل كان من حقي إعلام أبي وأمّ حسن بقدوم شفيق؟

في تلك اللحظة... رأت من خلال السياج... غريمتها ليلى وهي تسير جنبا لجنب مع الخالة زينب... وما أن وصلتا أمام الباب... حتى بادرتها ليلى قائلة:

– سعاد... ماذا تفعلين... تعالي نجمع معا باقة من الزهور نضعها على قبر حسن...

فهمت سعاد كلّ ما يدور في رأس هذه الأفعى الرقطاء لكنّها ضغطت على أعصابها وأخمدت ثورتها وقالت في ارتباك:

– سألحق بكما بعد قليل هناك من سيأتي لمقابلة والدي...

– آه... فهمت... فهمت... شخص مهمّ على ما يبدو... أليس كذلك؟ ...

– ماذا تقصدين؟ ...

– لا شيء... ولكن قلت ربّما... في الحقيقة الناس في القرية يقولون أشياء كثيرة... طبعا... أنا لم أصدّق ذلك...

– وقفت سعاد في عصبية ونظرت إليها متحدّية كأنّها تقول لنفسها:
(صبرا يا سعاد... يجب أن تدافعي عن حبّك إنّها اللحظة الحاسمة ! ...)
أضافت بصوت واضح:
– أظنّ أنّك تعجبت... خصوصا إذا علمت أن هذا الشخص المهم سيكون خطيبي اليوم... وسنتزوج قريبا...
فشدّت ليلى ابتسامة صفراء على شفتيها وقالت في ارتباك:
– أنت حرّة... يظهر لي أنّك نسيت بسرعة عجيبة حسن المسكين...
أجابتها سعاد متحدّية سحب الأحزان قائلة:
– من يدري... لعلّ سعادة الأموات لا تكون إلاّ بسعادة الأحياء...
قالت ذلك والتفتت إلى العجوز كأنّها تطلب تفهّمها ورضاها:
– أليس كذلك يا خالة؟ ...
لكن العجوز لم تقل شيئا...
بل أدارت وجهها وعادت أدراجها وهي تبكي في صمت...
وليلى تتبعها من خلف...
بينما بقيت سعاد واقفة تنظر إليهما في حيرة...

***

ومضت الأيام ثقيلة مترعة رغم ما عاشته سعاد من سعادة بزواجها الناجح من شفيق...

فلقد كان زواجا حافلا ورائقا فعلا... حضره كل من في البلدة من أصدقاء وأحباب وأقارب...

لكن في نهاية الحفل...

وحين انتهى كل شيء وعاد كل شخص من حيث أتى...

نظر بعضهم في منزل الخالة زينب...

فإذا بالظلام يخيّم على كل الأشياء...

اقتحموا الدار فإذا بها ممدّدة كالنائمة على فراشها... باردة كالثلج...

وبجانبها صورة ابنها الذي رحل ذات ربيع... وابتسامة غامضة على شفتيها الزرقاوين...

العشق بالأظافر

هي: اتصلت اليوم برسالتك...

هو: لا أعرف... كيف تجرأت على الكتابة إليك من جديد؟!

هي: لماذا؟ ...

هو: لقد أصبحت أؤمن... أن الكتابة إلى المرأة...

استنزاف للطاقة...

وضرب من ضروب العبث...

ومضيعة للوقت...

وهدر للعواطف...

ومجلبة للأحزان...

هي: وماذا أيضا؟ ...

هو: آسف... هذا هو الواقع...

هي: ما الذي جعلك تقول هذا؟ ...

هو: دعينا من هذا وأجيبيني... عن سر جحودك... وكفرك...

وتنكرك لكل ما عشناه بكل التفاصيل الحارقة... على امتداد سنوات الجمر ؟ ...

هي: لا أدري ما تقصد؟ ...

هو: سيبقى الرجل طفلا مدى الحياة... لأنّه لن يفهم المرأة أبدا...

هي: هل وصلك خطابي الأخير؟ ...

هو: نعم... ومازلت ابتسم لبعض جمله...

هي: ماذا تقصد؟ ...

هو: لم أكن أتصور أن رحيلي سيسبب لك متاعب...

هي: لم أفهم؟ ...

هو: طبعا... أفلم تقولي أنّك لم تجدِ جبينا ترمين عليه تعبك...

وأنّك فقدت حنجرتك التي كنت تعبرين بها عن غضبك...

وأنّك فقدت بذهابي تلك الراحة التي ما انفكت تمسح قلقك ؟...

هي: لقد قلت الحقيقة...

هو: دعيني أضحك...

هي: عندما تكون بعيدا عني أحس فعلا أني بلا وطن...

هو: إلى أن أعود طبعا...

أفلم تقولي، وهكذا سأظل إلى أن تعود...

هي: ماذا عساني أقول لك؟ ...

هو: لا شيء... لأنّك فعلا كائن عجيب... متقلب... لم يقدر بعد على فهم نفسه...

هي: أنا امرأة عادية...

هو: يخطئ من يعتقد أن المرأة كائن ضعيف...

إنّها أقوى مما نتصور...

هي: هذه شهادة أعتز بها...

هو: لكنها الأبرع في فن التلون والتشكل والتنكر...

هي: فقط؟ ...

هو: إن مشكلة المرأة شعورها الخاطئ بالنقص إزاء رجل يعشقها...

هي: فالعقدة إذن كامنة فيكم معشر الرجال...

هو: إن نقطة ضعف الرجل المزمنة...

تكمن في إيمانه الخاطئ بقدرة المرأة على الحب الخالص...

والوفاء الدائم...

والتضحية المستديمة...

هي: لست أدري من أين تأتي بهذا الكلام...

دعني اسكت...

هو: تلاحظين يا صغيرتي...

أن كلامي إليك...

كلامي معك...

فقد كل دفئه وكل بريقه...

هي: وهل عرفت السبب؟ ...

هو: لم أعد قادرا على قول كلام العشاق...

فقدت لذّة نسج حرير الكلام...

والرسم بالكلمات

والهمس بالأصابع...

هي: لماذا؟

هو: ما الفائدة؟ ما دمت واثقا من أن كل الذي سأقوله وسأكتبه...

سيأخذ لديك في النهاية شكل الهذيان والهلوسة...

ما أبشع أن يتحول صمتك إلى خنجر...

هي: ستبقى سندي الوحيد رغم كل الأحزان.

هو: ابتعدي عني...

وليبق جبينك بلا سند...

فلقد أرهقني حبّك...

أرهقني تقلبك الدائم...

هي: حرام أن نتجاهل كل ما عشناه بكل التفاصيل...كما قلت...

هو: دعيني ابتعد عنك قليلا أو كثيرا...

فلقد سئمت تقمص دور الجدار...

إنّ ما عشناه يمكن أن ينسى...

هي: وحبّنا ؟!

هو: الحب كالتنفس يا صغيرتي...

شهيق وزفير...

مد وجزر...

وما الحب من طرف واحد... إلاّ ضربا من ضروب التحيّل...

هي: هل أفهم من هذا... أنّ كل شيء انتهى بيننا؟ ...

هو: ...

هي: أجبني... لماذا سكت؟ ...

هو: سيبقى الصمت... أعظم الأشياء على الإطلاق...

فدعيني أرجوك لوحدي... أنشد شيئا من السعادة...

(***بعد صمت طويل متعب...***

انهارت الأعصاب...

احترق الفكر...

وبرزت الأظافر...

فكان بينهما هذا النزيف...)

هي: أما آن الوقت لكي نتفاهم؟ ...

هو: ...

هي: يا إلهي... ما هذه الحياة؟!

هو: ...

هي: قل لي... ماذا تريد بالضبط، ماذا تريد... ؟

هو: لا شيء... للمرة الألف أرجوك دعيني...

هي: إلى متى سنبقى على هذه الحال؟ إلى متى؟ ... قل لي...

هو: حتى يفرق بيننا الموت! ...

هي: أنت لا تحسن التفكير: إلا في الأشياء السوداء...

هو: وربما لا أحسن التفكير مطلقا... من يدري!...

هي: لم أعد أشكّ في ذلك... صدّقني...

هو: ومن قال أنّك شككت يوما في ذلك؟ ...

هي: إنّك تعرف جيدا أنني كنت...

هو: كنت ماذا؟ لماذا توقفت؟ ...

هي: كنت على الأقل أقدّرك... أقدّرك كثيرا... لكن...

هو: لكنك ممثلة ماهرة وامرأة زئبقية...

هي: أنا؟

هو: وبلا مبدأ... ككلّ نساء العالم...

هي: لو كنت كذلك... لما بقيت معك يوما...

هو: لماذا؟ ألانني لا أتذوّق التمثيل الهابط؟ ...

هي: إنّك لا تتذوّق شيئا...

هو: حتى اختياري لك؟ ...

هي: ...

هو: تكلمي... لماذا سكتّ؟ ...

هي: لو كنت أعرف حقيقتك... لما رضيت بك...

هو: هذا من حسن ذوقك...

هي: قل ما تحب... تسمع ما تكره...

هو: مرة أخرى... أرجوك... ابتعدي عني...

هي: إنسان حالم... شيخ في الثلاثين...

هو: ثمّ ماذا؟

هي: قول بلا فعل... وعود كاذبة... سراب...

آه لو سمعت كلام العقلاء...

هو: دعيني أضحك...

أي عقلاء... وأي كلام فارغ...

ذلك الأرمل المعقد مدرّس الفلسفة...

أم صديقتك التافهة التي كانت تريدك زوجة لأخيها المتخلف؟ ...

أم أختك التي تمقتني لوجه الله ورسوله...

من هم هؤلاء العقلاء الذين تتحدثين عنهم؟ ...

هي: المهم أنك تعرفهم...

هو: واحتقرهم أيضا...

هي: صدقني... لو استمعت فقط إلى كلام واحد منهم...

لما وقفت الآن على حافة الهاوية...

هو: سلامتك يا سيدتي...

هي: آه... لو استمعت فقط إلى كلام واحد منهم...

هو: عودي... عودي إليهم وحاولي إنقاذ نفسك قبل السقوط...

اذهبي ودعيني وحدي...

دعيني أعيش عزلتي وحيدا ولو على حافة الموت! ...

هي: أنت إنسان مريض أعصابك منهارة...

إنّك تستحق المعالجة...

هو: اذهبي مع الشيطان...

مع أطباء العالم...

مع الأدوية واتركيني...

هل فهمت...؟

هي: فهمت... فهمت أن الحياة معك أصبحت كالموت تماما...

هو: للمرة الأخيرة... أرجوك اتركيني وشأني...

هي: أنت لا تحب الحوار... لأنك تخاف الحقيقة...

هو: سيبقى الصمت أعظم شيء في الوجود...

هي: لكنه لن يظهر الحقيقة أبدا...

هو: ربما... لكنه لا يزيّف الحقائق كما تفعلين...

هي: أي حقائق هذه التي تتحدث عنها؟ ...

هو: لقد ذكرتها لك في الألف وخمسمائة رسالة التي عصرتها لك من عروقي...

وعبر أحاديثنا الطويلة في الشارع...

في المقهى...

في الحديقة...

على الشاطئ...

في القطار وفي كل مكان...

لكن ماذا كانت النتيجة؟ ... لا شيء... صفرا...

هل تعرفين ما معنى صفر؟ ...

كأنني لم أعالج ولم أحلل أمامك أية قضية...

هي: وهل تعرف السبب؟...

هو: ...؟ ...

هي: كلامك أكبر من أعمالك...

هو: ربما...

هي: أنت عدو نفسك...

هو: فعلا...

هي: تؤجل عمل اليوم إلى ما بعد الغد...

كما لو كنت ستعيش ألف سنة...

هو: صحيح... لكن ماذا تريدين... هذا أنا...

هي: لكن... هل عرفت الآن لماذا كانت النتيجة صفرا؟ ...

هو: مع الأسف...

لكن سيأتي اليوم الذي يثبت لك عكس ذلك...

هي سمعت منك هذا مليون مرة...

لن أصدق منك هذا أبدا...

هو: إذن... انتهت المشكلة... وتمّ كل شيء...

هي: يعني...؟

هو: الأفضل أن نصمت...

هي: كالعادة... هروب وعجز ومراوغة...

هو: قد يكون ذلك أفضل الحلول للانعتاق من زنزانة الوهم...

هي: في نظرك ونظر أمثالك من السلبيين...

هو: بل في نظر كل من يؤمن بالحب والدفء والسعادة...

هي: دعني أرجوك من هذا...

هو: يا لك من امرأة أنانية...

هي: يا لك من رجل لم يعرف بعد معنى الحياة... !

***

(وعادا إلى صمتهما المتعب...

وواصلت الأعصاب عملية انهيارها البطيء...

وتابع الفكر احتراقه في حزن...

واختفت الأظافر إلى حين. معلنة حالة اللا حرب واللا سلم ! ...)

(... ويمضي الصمت بهما في طريق الحقد أشواطا أخرى...

فتبرز في الأفق أشواك وأسلاك شائكة...

تزيد جراح الأمس نزيفا...

... ويتحول الحوار بينهما إلى عبوات ناسفة للحب الذي كان...)

هي: أه... لو تصورت أن الحياة معك انتحار بطيء...

هو: إذن لساعدتك بكل قواي على رفض العلاقة، صدقيني! ...

هي: أصدقك؟ دعني أضحك...

هو: وماذا تعرفين أكثر ؟ ... تيقني... لا شيء! ...

هي: على الأقل... أنا أعرف شيئا... وأنت؟ ...

هو: فعلا، لو كنت أعرف لما خدعتني الأوهام.

هي: الأوهام يا صديقي أنت خالقها...

هو: إذن فأنا – حسب رأيك– خالق مخدوع؟ ...

هي: بالعكس، لأنك رجل مازال يبحث عن نفسه...

هو: وهل عرفت لماذا؟ ...

هي: فقط أعرف أنّك تقف بي على حافة يأس قاتل...

هو: ... وأنك بطلة هذه المأساة! ...

هي: ربما... لكنني لست مؤلفتها على كل حال...

إنك الكاتب والمخرج معا! ...

هو: عجبا... كيف يمكن للحب أن يتحول إلى خنجر على يديك؟ ...

هي: إنّ الكلام شيء تافه...

والتمثيل سراب...

وها أننا في الفراغ...

هو: إنّ الكفر من أسهل الأشياء...

الإيمان فقط هو الأقوى...

لقد علمتني الأيام أن الحقيقة تكمن دوما تحت المساحيق والأقنعة...

هي: وخلف الأعمال أيضا...

حذار لا تنس !...

هو: ليس كل الأعمال مرآة الحقيقة...

هي: أعفني أرجوك من هذه الأفكار المشبوهة...

ولنعالج – إن شئت – وضعنا المنهار...

هو: أنا أرفض...

لأن شظايا عبواتك ما تزال عالقة بجراحي النازفة...

هي: لنتصرف... إذن بطريقة أخرى...

هات فكرة...

هو: الم تقولي الآن... أن أفكاري مشبوهة؟ ...

هي: ما رأيك لو نبدأ من الصفر؟ ...

هو: من جديد؟ وللمرة الخمسين؟ يا للمهزلة...

هي: لا يهم... لن نخسر شيئا...

هو: فعلا... لن نخسر شيئا...

ما دمنا قد خسرنا كل شيء...

هي: لنعد كما كنا ولنبدأ من جديد...

حرام أن نعيش بين الجنّة والنار...

هو: المصيبة يا صغيرتي...

هو أننا أضعنا الطريق تماما ولم نعد نعرف الاتجاه الصحيح...

إن من أضاع البوصلة...

مصيره الضياع...

هي: إن من يسمعك لا يشك في أنّك ستجلس على كرسي الموت قريبا...

هو: ابحثي عن طريقك إذن...

وجددي أفاقك ودعيني...

ما خلقت لهذه الحياة...

ربما كنت نشازا أو أي شيء تافه آخر...

لكنني واثق من أنني أخطأت كثيرا عندما أحببتك...

هي: تصور...

هذه أول مرة أبادلك فيها نفس الشعور...

شيء رائع...

هو: لأول مرة؟ ...

وبماذا تفسرين مئات الرسائل التي بعثتها لي؟

كلام فارغ ونفاق معطر فقط. لماذا؟ ...

هي: بل قل إنها مجاملة...

هو: إن المجاملة في الحب خداع قاتل...

هل عرفت الآن من الذي حكم على علاقتنا بالإعدام؟ ...

هي: في البداية... أحببتك بكل قواي...

لكن عندما توقفت وجمّدت وعودك القديمة ونمت...

رأيت من واجبي أن أجامل تعلاتكم الهلوسية في انتظار مفاجأة العمر...

فماذا كانت النتيجة؟ ...

عشرون ربيعا من عمري قد ضاعت...

والنتيجة... لاشيء... !

وتريد مني أن لا أضحك حزنا؟ ...

أصمت أرجوك...

و إلا خرجت عارية وصحت في الناس...

هو: هل لديك شيء آخر تضيفينه لهذه الهستيريا؟ ...

هي: شيء واحد فقط...

هو: أنّك إنسان خيالي لم يفهم بعد ما معنى الحياة...

إنّها عقدتك الدائمة! ...

هو: أنت امرأة مخادعة كافرة ستعاقبك الأيام حتما! ...

هي: سنرى من سيبقى سخرية في فم القدر! ...

هو: عجبا كيف يمكن لصمتك القديم أن يتحوّل إلى خناجر مسمومة...

من قال أن امرأة مثلك ستدبر مؤامرة اغتيالي؟ ...

هي: سكتّ في الماضي لأنني تصورت أن خيالك طموح وبناء...

لكن الواقع المر فند كلّ أحلامي...

فصرخت...

هو: للمرة الألف... ماذا تريدين مني بالضبط؟ ...

هي: وتسألني أيضا ماذا أريد؟ لا شيء اطمئن...

هو: أنت امرأة لا تطاق...

هي: لماذا؟ ألانني كشفت عيوبك؟ ...

ودعوتك إلى الخروج بنا من بوتقة الضياع والحرمان؟ ...

هو: من البلاهة أن نعمل على نسف الماضي هكذا وبكل بساطة...

إنّك بعملك هذا ستجعلين من حالة اللاّ سلم التي نحياها خبزنا اليومي...

هي: أعرف أن ما نحياه أعنف من الحرب...

لكن ماذا تريد إنّه الوضع الملائم لحياة مشبوهة كالتي نحياها...

هو: فليكن إذن ما أردت...

ولنصمت...

ليس ثمة أعذب من الصمت لتذوق الأحزان...

هي: يا لك من طفل خيالي غريب...

هو: يا لك من امرأة مجنونة كافرة...

(... ويواصلان معا رحلة الاحتراق على قطار الصّمت...

وتمر الأيام رمادية ممطرة...

ويختفي الحب بعيدا...

ليترك الأشواك تمتص نزيف جراحات الخيبة...).

هُيـــام

حتى الآن مازال يتخيلها واقفة في جمال أمام باب معهده...

هكذا أنيقة... رائعة كالدمية الباريسية...

آنذاك شعر بقلبه يخفق بشدّة كما لو كان سيلقاها لأوّل مرة...

كان من عادته أن يغادر القسم بعد الوقت بقليل لكن...

ما أن لاح له محيّاها الرائع... حتى أخذ يحثّ تلاميذه على الخروج بسرعة...

ثمّ قطع الطريق ووقف أمامها...

أحس وهو ينظر في عمق عينيها...

بأنّها تحمل في صدرها شعورا مزدوجا فيه الحبّ والغضب معا...

ولكنّه أحسّ كذلك بأنّه قادر على مسح كل أحزانها...

إيمانا منه بحبّها الجارف الذي حوّله إلى إنسان آخر يعشق الحياة...

ابتسمت له كأنّها تذكّره بإحدى عباراته:

" المحبّ المخلص لا يحمل (حقدا حقيقيا) إزاء من يحبّ..."

فشعر رغم صمتها بأنّها ستغفر له عدم كتابته إليها في الأيام الأخيرة.

لو كانت فتاة غيرها لاكتفت بالصمت هي أيضا...

ولكنّها أضافت شيئا عظيما رغم صمتها... وعدم كتابتها له هو مجيئها إليه الآن للاطمئنان على صحته...

وأحس بأنّه لم يشكرها كما ينبغي...

فقد كان من واجبه أن يضمّها إلى صدره بكلّ قواه، ولكن الخجل من عيون الناس أقعده عن ذلك...

واكتفى بالنظر إليها في عشق صارخ...

لكنه خاف أن يقلقها ذلك...

وكان إحساسه في محلّه...

فقد طلبت منه أن يقول أيّ شيء...

لكنّه أحسّ بالعجز يكبّل لسانه... ولم يقل شيئا...

لم يستطع لأنّه غير قادر على مدّها بالبرهان... وعن الدفاع عن نفسه.

عندما وصلا حديقة البلفدير... طلب منها الجلوس قليلا على المقعد الخشبي...

لكنّها امتنعت ولم يعرف لماذا؟ ...

في غمرة الأشياء الحزينة التي تسربلهما أحيانا... لم يعد يفهم شيئا من تصرفاتها الغريبة...

لقد رفضت في حين أنّه مازال يذكر جيّدا ما قالته أخر مرة:

– " من الآن ...سألبي جميع طلباتك... صدّقني..."

فرح آنذاك بهذا الوعد لكنّه تعجب الآن من رفضها الأخير...

فواصلا السير إلى أن دخلا مقهى الشلينق مكانهما المفضّل...

بقيا قليلا... فشعر أثناء هذه الجلسة... أنّ غضبها قد نقص بدرجة ملحوظة...

فاقتنع أكثر من أن حبيبته... إنسانة طيبة القلب...

وكأنّها فهمت منه ذلك فوضعت يدها في يده لتقول له في صمت:

– " حبّك الجارف يقرّبني منك كل يوم أكثر..."

كان يعرف... أنّ ما أصبحت تظهره من دفء... ليس ضعفا... بل حبّا متبادلا...

وتذكر ما قاله لها ذات يوم:

– "العاشق يحبّ حبيبته في حالتي الغضب والفرح..."

ليس يعني هذا... إنّه لم يتأثر لغضبها...

كلاّ فغضبها يجعله يفكر أكثر في الخطإ الذي ارتكبه نحوها...

يجعله يطلب منها الاعتذار...

يجعله يحبّها أكثر... كما فعل يوم السبت الماضي...

في ذلك المساء أحسّ بأنّه لم يحبّها فقط...

بل عشقها عشقا بلا حدود...

ومضى بهما قطار الصمت شوطا طويلا وهما جالسان على مقعدهما الأخضر... كان يفكر في ألف شيء لإظهار حبّه لها رغم صمته وعدم الكتابة إليها في المدّة الأخيرة...

تناهت إليه كلماتها العذبة:

– " تحبّش نتقابلو غدوة؟!"

بدت له هذه الجملة في أوّل الأمر... كما لو كانت آتية من بعيد...

فنظر في عمق عينيها طويلا وهي تبتسم له ولم يشأ أن يجيبها خوفا من الصدمة...

لكن حين شعر بأنّها ربما هي أيضا ترغب في ذلك قال لها:

– وقتاش نستناك؟ ...

وابتسمت ثانية كأنّها غير واثقة من الشيء الذي اقترحته بنفسها...

فأحسّ برغبة كبيرة في لقائها غدا... رغم كل الشكوك...

قالت تطمئنه وقد فهمت ذلك:

– كي العادة... مع الستّة! ...

وأحسّ بالرغبة في الصياح من شدّة الفرح...

وشعر بنيران الحبّ تعتمل في داخله... أكثر من أي وقت آخر...

ولم يعرف لماذا قال لها:

– سأغضب إذا لم تأت...

– لماذا تقول هذا؟ ...

– لست أدري... لكنّني خائف...

فجأة... وقفت كالدّمية السكرية وقالت باسمة:

– هيّا نقومو... وقّيت...

عندما سار إلى جانبها من البلفدير إلى باب سويقة مرورا بباب الخضراء كان شبه الهائم على وجهه...

اختلطت أمامه الأضواء والوجوه...

كان يتمنّى لو أنّ المسافة الفاصلة تطول أكثر حتى يبقى بجانبها لحظات أخرى...

إنّ السير إلى جانبها ويدها في يده لمن الأشياء الرائعة حقا...

عندما وصلا وحان وقت الوداع عادت لتجمعهما نظرات الحيرة لكنّها لم تقل شيئا...

فاكتفى بكلمة قالها في شبه همس:

– " نحبّك".

عندما عاد إلى بيته... كان في غاية الفرح...

استلقى على الفراش... وأخذ ينظر إلى صورتها المعلقة على الجدار... وبدا يفكر...

إلى حدّ الآن لم يعرف كيف استطاع بخياله الطفولي المجنّح... أن يختزل الساعات...

وأن يتجاوز المستقبل...

وأن يحوّله إلى حاضر معيش؟ ...

لم يعرف كيف أقبل الموعد على جناح السرعة...

وكيف نهض ليغسل أطرافه ويلبس ثيابه استعدادا لملاقاتها... حسب الموعد؟ ...

خرج امتطى الحافلة وهو يكاد يخرج منها رغبة في الوصول إليها بسرعة أكبر.

وانتظرها طويلا عندما وصل... أو هكذا بدت له دقائق الانتظار...

فأخذت الأفكار تهدّ فكره المتعب...

وأحسّ بشيء من الألم...

لكن ما أن رآها مقبلة جميلة... رائعة... أنيقة... كفراشة ربيعية ساحرة...

حتى عاد إليه أمله المفقود ونسي ألمه وحيرته في لحظة.

- "توحّشتك".

تورّد وجهها المرمري...

وأسدلت أهدابها خجلا...

ولم تقل شيئا...

أحسّ وهو يسير معها وسط الجماهير بموجة من سعادة لا توصف...

فأخذ يتحدث ويتحدث عن مشاريعه وبرامجه المستقبلية معها...

وهي تضحك لبعض تعليقاته ونكته المرتجلة...

ونسي معها كل الغضب وكل العتاب وتساءل:

– كيف يمكن أن لا نسعد...

والحب إكسيرنا في الحياة! ...

أمّا عن جلستهما فإنّه لا يستطيع أن يعيد صورها الغنية بالدفء والظلال والحبّ والهمسات...

وأحسّ بأنّ كل حركة منها تدلّ على أنّها تحبّه حقا...

وكل لمسة منها تدلّ على أنّها له وحده!...

– أه لو تعرفين كم أصبحت أكره هذا الزمن المجنون...

قالها بكل غضب وثورة بعد أن رآها تنظر إلى ساعتها كأنّها تودّ العودة.

– أنا معك...

لكنّني أتساءل لماذا تتحول ساعات الفراق شهورا وأيّاما؟ ...

– يبدو أنّ سرعة الزمن لا تحب العاشقين...

– أكيد... أفلم تقل مرّة بأنّ الزمن من أكلة لحوم البشر؟ ...

– فعلا... إنّ ما أتمنّاه هو أن اكتشف في يوم ما وسيلة لإيقافه...

– هيّا بنا الآن وثق بأنّني سأساعدك على تحقيق ذلك...

لم يعرف كيف تراءى له هذا...

وكيف غرق في دوّامة الأماني والرؤى مغمض العينين...

لكنّه عندما فتحهما على صورة وجهها الساحر...

عاوده التفكير في هذا الفراق الذي ما انفك يقف بينهما بكلّ قسوة...

ودخل في دوّامة الانتظار وعدّ الساعات...

لعلّه بذلك يستطيع أن يحقّق زمن الصحو...

ما استطاع أن يحققه زمن الحلم.

النـدم

(يوم جميل... دافئ... من أيام الصيف...

الساعة الرابعة مساء....

نادية... تسير شاردة على الرمل...

تبحث عن مكان هادئ أمام البحر...)...

نادية: *(في شبه همس)*... كل خطوة على رمل هذا الشاطئ...

تذكرني بألف شيء... ترى هل كان من الأحسن عدم المجيء؟ ...

قد لا يهم كل هذا الآن...

فالماضي هو الماضي...

وأحمد نسيته منذ زمان...

(تواصل طريقها في صمت... وفجأة...

أحسست أنّ شخصا ما... يتبعها...

تلتفت لتقف أمامه مشدوهة...)...

نادية: أحمد؟!!

أحمد: إلى هذه الدرجة... نسيتني؟...

تمرين أمامي في صمت...

كما لو كنت غريبا؟...

نادية: معذرة... لم أرك... كنت شاردة...

أحمد: إنني سعيد بمرءاك...

أنت أجمل من ذي قبل بكثير...

نادية: شكرا...

أحمد: (يبتسم)... هل أحرجك إذا طلبت معك البقاء معي قليلا؟ ...

ثم... علينا أن لا ننسى أننا كنا أكثر من صديقين...

نحن لم نقطع علاقتنا أبدا...

أليس كذلك؟

نادية: نحن لم نقطع علاقتنا؟ ...

يظهر لي أنّك بقيت كما أنت يا أحمد... ولم تتغير...

أحمد: ماذا تقصدين؟ ...

نادية: يبدو إنّك مازلت ترى الأشياء بمنظارك الخاص...

أحمد: نادية... أرجوك...

لا تكوني حقودة إلى هذه الدرجة...

نادية: (*تبتسم في مرارة... وهي تنظر في أعماق عينيه طويلا... ولا تتكلم...*)...

أحمد: أعرف أنني لم أحسن التصرف نحوك... ولكن...

لا يجب أن ننكر الأيام السعيدة التي عشناها معا...

نادية: للأسف مازلت أذكر... كل شيء...

أحمد: تعالي... تعالي نجلس هنا...

نادية: نجلس؟

أحمد: نعم في هذا المكان حيث التقينا أول مرّة...

نادية: أحمد... أرجوك...

أحمد: لماذا أنت مترددة؟ ...

نادية: لا أعرف...

المهم هو أنني لا أريد أن أقع في حبّك مرّة أخرى...

بعد كل الدموع التي ذرفتها عندما هجرتني ونسيت حبي...

أحمد: أنا أقدر شعورك يا نادية...

لقد كنتُ قاسيا فعلا...

ولكن مازلت أحبّك بكل قواي كذي قبل...

نادية: شكرا... لكنني لم أعد أقبل أي شيء منك...

فلقد أصبحت أعرف نفسي...

أحمد: طيّب... تعالي نجلس أوّلا...

نادية: ما دمت ترغب في ذلك...

وما دام لدي قليل من الوقت...

فأنا لا أرى مانعا...

أحمد: ستبقين رائعة دائما...

نادية: لك أن تقول ما تشاء... لن يغرّني ثناؤك أبدا...

أحمد: لست أدري لماذا تزرعين لحظة لقائنا أشواكا؟ ...

في الوقت الذي كان من واجبنا الوصول فيه إلى اتفاق يعيد إلينا حبّنا القديم...

نادية: أو تعتقد أننا مازلنا نحب بعضنا كذي قبل؟ ...

أحمد: نعم... أنا واثق من ذلك...

نادية: لا أظن...

أحمد: نادية... أرجوك... حاولي أن تفهمي معنى كلامي...

لقد كنت آنذاك كالطفل الصغير...

شاب مراهق لا يفهم معنى الحب...

وفعلا... لم أعرف قيمتك آنذاك...

نادية: لأول مرة... أسمعك تظهر عيوبك...

أحمد: نادية... عندما رأيتك الآن تسيرين على الرمال...

شعرت في قرارة نفسي أنني مازلت أحبّك بكل قواي...

وأنني لم أنسك أبدا...

لست أدري ما الذي أفعله حتى أجسّم لك حبي...

وحتى أقنعك بأنّك فتاة أحلامي الوحيدة؟ ...

نادية: يصعب علي تصديقك يا أحمد... آسفة...

أحمد: لماذا؟ لماذا؟ ...

نادية: عندما نفقد الإخلاص إزاء شخص أحببناه كثيرا...

يصعب علينا استرجاعه لقد بكيت كثيرا...

أخطاؤك زرعت في قلبي سهاما وأشواكا...

أحمد: ولكنني ما زلت أحبّك...

نادية: أنا لا أريد أن أخفي عنك شيئا...

كنتَ فعلا حبي الأول الذي بنيت عليه أحلامي الكبيرة...

ولكن يظهر لي أنك كنت أيضا كثير الزهو بنفسك إلى درجة الغرور...

فلم تستطع فهم ما كان داخل قلبي المحبّ...

هل مازلت تذكر صيف لقائنا؟ ...

أحمد: نعم... مازلت أذكره...

نادية: في ذلك الصيف...

فقدت أبي وأمي –كما تعلم– في حادث أليم...

أحمد: (*يضع يده على يدها في حنان ودفء*...) سامحيني نادية... إنّك لا تتصورين كم أنا أحبّك...

نادية: لا يا أحمد... أرجوك لا تحاول تزييف عواطفك نحوي...

كما فعلت أول مرة...

إنّك تشفق علي فقط... ولا تحبني...

بالضبط كما حدث منذ سنوات...

عندما حدّثتك عن ظروفي...

أحمد: إنك تخطئين حين تقولين هذا...

مازلت أذكر كل شيء...

كنت آنذاك حزينة...

وحدتك هي التي دفعتني للحديث إليك...

وكسب صداقتك...

هل تذكرين كيف فتحت معك باب الحديث...

نادية: لا أذكر...

أحمد: لقد قلت لك آنذاك... صباح الخير...

هل تسمحين لي بالجلوس قليلا بجانبك؟ ...

أنا أدعى أحمد فرحات...

وأسكن (الفيلا) المجاورة... تلك التي بابها أزرق...

نادية: أعرف... لقد سبق لي أن رأيتك مرارا... اجلس... إن شئت...

أحمد: لست أدري لماذا تكرهين السباحة...

ثمّ إنني لم أرك يوما تلعبين...

ألا تحبين الشاطئ؟ ...

نادية: لقد كنت أحب كل شيء...

ولكن القدر جعلني أكره كل شيء...

أحمد: القدر! لماذا؟ ...

نادية: لأنني حزينة... وأفضل أن أبقى وحيدة...

أحمد: شاعرة؟ أم عاشقة رومانسية؟ ...

نادية: عندما أكون وحيدة يلذ لي مشاهدة أحلامي الجميلة عبر خيالي...

أحمد: أحلامك الجميلة... اذكريها لي... حدثيني عنها...

نادية: إنّها أحلام بسيطة...

أفكر بأنني سأحبّ قريبا... بكل قواي... شابا اختاره قلبي من بين الجماهير...

وسنتجول على متن زورق صغير في عرض بحيرة خضراء هادئة...

حتى لا أشعر أبدا بوحدتي القاسية...

أحمد: وإذا رشحت نفسي لكل هذه الأشياء التي تودين القيام بها...

فهل سأظفر بصداقتك يا ترى؟ ...

إنني لست وسيما... ولكنني لطيف كما يدّعي أصدقائي...

نادية: (*تبتسم وقد أعجبتها صراحته*) نعم...

أحمد: لماذا قبلت بسرعة ترشحي؟ ...

نادية: لأنك تبدو لطيفا فعلا...

وأنت... لماذا طلبت بسرعة صداقتي؟ ...

أحمد: لأنك جميلة فعلا...

نادية: ومنذ ذلك الحين...

أحمد: أصبحنا صديقين حبيبين...

نادية: نتجول مع بعضنا...

أحمد: نسبح مع بعضنا...

نادية: وفي المساء نجلس في نفس هذا المكان...

هكذا على الرمل...

نهمس نتحدث... نتناجى... نزرع طريق حياتنا... أملا وعطرا...

أحمد: واليوم الأخير... هل مازلت تذكرين عنه شيئا؟ ...

نادية: مازلت أذكر عنه كل شيء...

حتى وعودك التي قلت لي عنها أنّها صادقة...

أحمد: سامحيني يا عزيزتي...

نادية: سألتك آنذاك...

ستكتب إلي كل يوم... أليس كذلك؟ ...

فقلت لي:

– أعدك بذلك...

ولكنّك لم تكتب إليّ ولو حرفا واحدا...

مع أنّك تعلم أنني أموت بدون رسائلك...

وعدتني كذلك بزيارة عمي حتى تطلب يدي...

ولكنك لم تفعل...

أحمد: نادية... أعطيني فرصة أخيرة لإصلاح ما حدث...

سوف أمسح عن قلبك كل الأحزان...

من الآن يا عزيزتي سأذهب لأطلب يدك وسنتزوج سريعا...

نادية: لقد انتهى الآن كل شيء يا صديقي...

أحمد: لماذا؟ ...

نادية: أولا... لأنني نسيت ماضينا تماما...

أحمد: ومنذ متى؟ ...

نادية: منذ زمن طويل...

وثانيا... لأن رجلا آخر دخل حياتي يا أحمد...

أحمد: أنت... تحبين شخصا آخر؟

نادية: نعم...

أحمد: مستحيل...

نادية: أرجوك يا أحمد...

لنكن عقلاء ولنصمت...

لقد انتهى... لم يعد ثمة فائدة في نبش الماضي بما فيه من دموع وأشواك...

(*تصمت قليلا*) آه هذا خطيبي قد جاء...

أحمد: خطيبك؟؟

نادية: نعم... إنّه... يتجه نحونا...

(*ويصل الشاب.. فتحييه نادية ... وتضمّه إلى صدرها*...)...

نادية: منير... ألا ترى أنّك تأخرت يا حبيبي...

منير: معذرة يا عزيزتي...

لقد اضطررت للعودة إلى البيت قبل المجيء...

نادية: (*تقاطعه*) أوه... لا يهم...

منير... أقدم لك صديقا كنت قد درست معه بالجامعة...

منير: أهلا وسهلا...

أحمد: أهلا...

نادية: أستاذ أحمد... أقدم لك خطيبي منير... سنتزوج قريبا...

(*تضع رأسها على كتف خطيبها في دلال*) أليس كذلك يا عزيزي؟

منير: أجل يا عزيزتي...

ولكي تطمئني أكثر...

فسأحملك معي الآن لزيارة (*الفيلا*) الرائعة التي ستكون عش

زواجنا الوردي...

فهل أنت سعيدة يا حياتي؟ ...

نادية: نعم... سعيدة... جدّا...

منير: إلى اللقاء إذن يا أستاذ أحمد...

أتمنى أن تجمعنا فرصة أخرى.

نادية: إلى اللقاء...

أحمد: (*ينظر في عمق عينيها طويلا في ألم وحزن ولا يقول شيئا*...)...

منير: سوف تحضر حفل زفافنا بدون شك...

ما دمت صديق نادية... آه... لا تنس...

أحمد: (*يبتسم في مرارة*)

(*وبينما يسير المحبان بعيدا على الرمل..*

تحيط بهما السعادة...

يبقى أحمد على الرمل..

وعيناه تلاحقهما في يأس مدمّر...

ولأول مرة... أحس في قرارة نفسه بالوحدة الرمادية تحرق عروقه...

فتقدّم نحو البحر... شارد الفكر تائه القلب...)...

أحمد : لقد أخطأت كثيرا...

ولم أتفطن لأخطائي سوى الآن...

من أجل هذا فقدت نادية...

الآن فقط بدأت أحس أنني أحبّها...

أعبدها بكل... قواي... لكن...

ترى هل تستطيع هذه الأمواج أن تطفئ الندم المشتعل في أعماقي؟ ...

۞۞۞

الطفل والعروس

منذ أكثر من أسبوع، وهو يعيش على أعصابه...

يتألّم، ويحترق...

لقد عاش بداية حزنه الكبير، منذ سنة تقريبا...

كان ذلك في الصّائفة الماضية، عندما جاء (الغرباء) إلى المنزل، ودخلوا غرفة (خالته) منوبية.

أحسّ آنذاك أنّ في الحدث شيئا مخيفا، لكّنه لم يفهم جيدا سبب خوفه ولم يعرف معنى قلقه وضيقه.

لقد قبع في الشباك المطل على (الدّريبة) يراقب الداخل والخارج، تائه الفكر، شارد اللّب.

هذا العم الطاهر(الشواشي) يحمل تحت إبطه حزمة (الكرضون) فيرفع الإزار ويدفع باب غرفته ويدخل...

وهذه هادية ابنة الخالة فاطمة تحمل سلة المهملات لتضعها قرب الباب...

– ترى ما الذي يفعله الآخرون الآن؟ ...

حتى أمّه تركته ونزلت مع أخته إلى السقيفة لاحتساء الشاي وانتظار (النتيجة)!

إنّه يتصور الموقف الآن: غمزات وضحكات وتعاليق:

– " إن شاء الله كيما ترى لطيفة يالّة جميلة".

– " وأنت حيّة بخير يالّة فاطمة...

إن شاء الله كيما ترى هادية وفطومة وفوزية والصبايا بكل"...

وأفاق من شروده على زغردات النسوة، وقد ملأت الأرضية ضجيجا لم يتبين فحواه...

فأحس بدوار يهزّ رأسه وشعر بالغثيان...

لم يكن يظن أن حدسه صادق بهذه الكيفية...

ولم يكن يعتقد أن الأمور ستتطور بهذه السرعة...

وأحس بدمعة حارة تنحدر على وجنته الشاحبة...

وعرف أنّه يبكي...!

هذه هي المرة الأولى التي بكى فيها...

لقد كان حسّاسا، يتألّم لأبسط الحوادث ولكنّه حين يشعر بالحزن، يكبت لوعته ويبكي في صمت وبلا دموع!...

أفاق من شروده فألقى نظرة ضبابية على (الدريبة)، فإذا بامرأتين ملتحفتين تسيران جنبا إلى جنب مع خالته منوبية...

حاول أن يتحقق من المسألة بالتقاطه لما كان يدور بينهن من حديث...

لكنّه لم يستطع فاكتفى بمتابعة إشاراتهن وضحكاتهن.

وودعت الخالة منوبية الزائرتين وأغلقت الباب وعادت أدراجها مسرعة على غير عادتها...

ولم تكد تقترب من السقيفة حتى أطلقت زغردة طويلة زادت من مأساته...

فأحسّ ثانية كما لو أن الأرض تنهار من تحته...

ألقى نظرة أخرى على الممر ورفع يده يتحسّس آثار الدمع على وجنته ثمّ نزل في تثاقل إلى الأرضية...

لم يعرف كيف كان في الطبقة العلوية وكيف نزل منها إلى السقيفة؟ ...

لم يجد أحدا هناك، إلاّ ماعون الشاي وأفرشة الجلوس...

سارت به قدماه إلى فناء الدار حيث الضجيج على أشدّه بين الجارات...

– "مبروك يالّة منوبية...

– إن شا الله بالهناء...

– بَدو بتمام...

– مبروك يا رشيدة، ءاش نوة، موافقة؟ ..."

وقف على العتبة الفاصلة ولم يعرف هل يتقدّم هو أيضا لتقديم التهاني أم يهرب بأحزانه...

كان ينظر إليها وينتظر...

وابتسمت رشيدة للسؤال في خجل وقالت في شبه همس " موافقة "...

حدّق فيها مليّا ولم يتقدّم، ولم يقل شيئا...

كان يريد أن تشعر بوجوده وترى قسمات وجهه المنهار فتسأله عمّ به...

كان يريد أن تعيش مأساته! ...

أطال فيها التحديق، فلم يعد يرى أحدا غيرها...

والتقت نظراتهما أخيرا...

فكان غضب الحبّ في عينيه وكانت مفاجأة الحيرة في عينيها...

فتقدمت منه وأمسكت بيديه السمراوين ثمّ قالت وهي تنظر بعمق عينيها في أحزان عينيه:

-" ووه يا ناري، أش بيك عبد الستار؟ ما تقولش لتاتاتك مبروك؟"

ولم يقل شيئا! ...

لقد أحس أنّه طعن فعلا...

نظر إلى وجهها الأسمر الجميل وإلى عينيها العسليتين...

ابتسمت له حتى يرى أسنانها الصغيرة البيضاء...

فتذكّر جملته التي قالها يوما أمامها:

- "سنّيك، سنّين بنية صغيرة ما أحلاهم، ياخي بدّلتهم ولاّ مازلت؟"

وضحكت آنذاك وفرحت كثيرا، فشعر أنّها تحبّه أكثر...

إنّه مازال يتذكر جيدا ما قالته:

- " لو كان كنت أكبر منّي ولا حتى قدّي، راني خذيتك، تعرفشي علاش؟ ... "

ولما سألها عن السبب أضافت في دلالها العذب:

- "على خاطر شفّتك الخشينة هذي "...

وبلا وعي... تحسّس شفته السفلية الغليظة...

فأحس بقشعريرة لذيذة تسري في عروقه، وابتسم لها...

قالت تسأله ثانية:

- " قلي ما تقلّيشي مبروك، تاتاتك باش تعرس"...

ومرة أخرى، انطفأت ابتسامته فإذا به أمامها على عتبة الألم...

لم يجبها ولم يقل لها شيئا...

نظر في عمق عينيها طويلا...

ثمّ خرج إلى السقيفة كما لو كان شيطان يطارده...

وتناهت إليه نداءاتها وهو يجري...

لكنّه لم يلتفت وواصل فراره نحو الشارع...

هناك، جلس (كالرجل الكبير) في مقهى الحي ينظر إلى الفراغ...

القى نظرة على نفسه وهو جالس:

– صندال أصفر من باطا – وسروال (ماكو) في لون قميصه الأزرق...

لمس وجهه ثمّ تحسس رقبته وعصر جبينه ولم يدر ما يفعل...!

فحرّك رجليه في الهواء ثمّ ضرب على (الطاولة) بجمع يده وأخذ يصفّر!...

لم يحس بمرور الوقت...

كان ينظر ولكنّه لا يرى في الناس إلا أطيافا بلا معنى...

حتى أحمد صديقه الحميم، لم يأت ليبوح إليه بأشجانه...

لقد غرق في (الترجي) وكرة القدم ومجموعة صوره الجرائدية...

نظر إلى ساعته، فإذا بها تشير إلى السابعة إلا الربع...

خاف أن تعنفه أمّه فنهض وقفل راجعا إلى الدار...

دفع الباب الخشبي الكبير ودلف إلى الممرّ...

كان يتمني شيئين في نفس الوقت:

أن يلتقي بها، وأن لا يلتقي بها...

ولم يعرف أيّهما أحبّ إلى نفسه؟ ...

ولم يلتق بها! ...

فتألم، وصعد السّلم وجلس على الحشيّة، ولم يكلّم أمّه...

قالت تسأله: " وين كنت لتوة ؟ ... "

أجابها: " بَحْذَا حِمْدْ".

– " قوم اغسل أطرافك، تحب تتعشى؟ ... "

– " ما عينيش "...

قال ذلك ومد يده إلى مجموعة من المجلات القديمة كانت موضوعة قربه على كرسّي، فأخذ قصّة (*بلاك*) بطله المفضل وحاول أن يقرأ.

رغم أنّه كان يحبّ هذا النوع من القصص، لم يفهم لماذا فقد الرغبة في مطالعتها وأصبح ميّالا لتصفّح مجلاّت الكبار التي تشبه صورها مشاهد الأشرطة السينمائية...

لقد شاهد عبد الحق ولد العم الطاهر يطالعها، وكذلك رشيدة وسعاد...

لكنه لم يفهم كذلك لماذا تطالعها رشيدة وسعاد خفية أثناء القيلولة؟...

تصفح مجلته بسرعة...

كان ينظر إلى الصور فقط ويفكر فيها بكل قواه...

إن وجهها الأسمر العذب، لا يفارق خياله...

وتساءل: لماذا أحبّها؟ ...

استعرض شريط الماضي فتذكر كيف بدأ ذلك...

كانت خالته منوبية تحبه كثيرا لأنّه (عاقل) يسمع كلامها ولا يعصي لها أمرا...

كذلك زوجها (عمه الهاشمي) الذي كان يقول له: "أنت ولدي العزيز، على خاطر رجّال، ربي يفتح عليك".

رغم كل الأتعاب التي كان يلاقيها عندما يكلّف بجلب الماء من الحنفية العمومية، ورغم تركه لحلقة الأقران لتلبية رغبة الخالة منوبية في إيصال رشيدة إلى دار عمتها...

رغم كل ذلك...

كان يشعر باللذة والاعتزاز لأنّه أصبح (رجلا) ترسل معه الصبايا للمحافظة عليهن من عبث العابثين...

وكثيرا ما خرج مع رشيدة لإيصالها إمّا للحمام أو لدار بنت خالتها سعاد...

كانت رشيدة جميلة حقا بلحفتها المصرية الساحرة حتى عندما كان يتبعها من خلف...

كان يفعل ذلك خاصة عندما يقتربان من دكان (المنجي) الحلاق الذي ما انفكّ يرميها بنظراته النارية كلّما مرّت أمامه...

كان يكرهه كثيرا لأنّه يحاول أن يفتكّها منه...

وكان يكرهه أكثر لأنّه لم يكن أنيقا مثله...

حتى شعره فقد كان (فقيرا جدا)...

الآن فقط عرف لماذا كان المنجي يحلق له شعره (بروس)...

كان يريد أن ينقص من جمال وجهه أمام من يحب...

لكنّه كان بالمرصاد لنظراته وحركاته وسكناته...

ومازال يذكر كيف عاد برشيدة إلى المنزل من نصف الطريق عندما اكتشف أنّها ابتسمت له من تحت (الخامة).

لما وصلا، تعجبت خالته منوبية وقالت:

– "علاش رجعتو؟ آش نسيت يا رشيدة؟ ... "

وصاحت رشيدة وزمجرت ودعت عليه وأرادت أن تضربه.

وأحس أنّه فعل شيئا عظيما خصوصا عندما سمع أم رشيدة تضحك وقد فهمت الحكاية وقالت:

– " يعيّشو ولدي، حزّار على أختو"...

لكن رشيدة صاحت من جديد وقالت:

– "حزّار؟ كثّر عاد، والله من اليوم لا عدت نخرج معاه، ها السّخطة"...

وأحس بالحزن ينهش قلبه فنظر إلى اللا شيء وهمس:

– " أنا نحبّها وهي تقلّي سخطة "...

وقرر عدم مكالمتها...

وعدم النظر إليها...

وعدم الخروج معها عندما تريد أن تذهب إلى السينما...

سوف لن تذهب إليها أبدا مادام يرفض الخروج معها...

إنّ أمّها لن تتركها تخرج وحيدة ولا حتى مع سعاد وهادية...

سوف تعرف قيمته...

وسوف يرفض همساتها وضحكاتها الكاذبة وفرنكاتها وتمريرات يدها على شعره...

لقد أخذ قرارا ولن يعود فيه! ...

ودامت القطيعة مع مرور الأيام...

لم يكلمها ولم يعد يذهب إلى فناء المنزل إلا للضرورة...

والتقى بها عدة مرات في السقيفة لكنّه لم ينظر إلى وجهها الرائع...

ولم يحاول أن تلتقي نظراته الخجولة بنظراتها الساحرة...

كان يحاول أن يبدو أمامها ذا أنفة حتى تكون هي صاحبة البادرة الأولى لإبرام الصلح...

لكنّه سئم كبرياء الوحدة...

فنسي قراره وعاد إليه حنينه إلى جلساتها وابتسامتها ونظراتها العسلية، وأسنانها البيضاء الصغيرة...

لقد اكتفى كامل هذه المدة بالاستماع إلى صوتها وكلامها وضحكاتها من بعيد، وكان يقضي أوقات فراغه غارقا في أحلام الحزن...

لم يكن أحد يعرف ما به...

إنّهم ينظرون إليه كما لو كان طفلا صغيرا...

حتى رشيدة التي (فهمت) عواطفه وتحدثت إليه في مواضيع كثيرة وأشعلت بحوارها ودلالها نيران الحبّ في عروقه، أصبحت تتجاهل هي الأخرى ما يعذّب قلبه وفكره...

وعرف أن المرأة كائن غريب! ...

صار يتمنى قدوم عيد أو مناسبة صفاء حتى يستغّلها لإرجاع المياه إلى مجاريها...

وحتى تعود أيامه قربها إلى عهدها الدافئ...

وكان عيد الفطر! ...

نهض بكرة فساعدته أمّه على الاستحمام واعتنت بلباسه الجديد...

فبدا بعد ساعة في مظهر أنيق يجلب الإعجاب...

سيكون أكثر أناقة حتى من الصادق والناجي ومحمد أبناء خالته فاطمة...

وربما أكثر أناقة حتى من صديقه أحمد ولد مراقب القمارق...

وقف طويلا أما المرآة، وأخذ يحسّن من شعره القصير...

ثمّ مدّ يده إلى قارورة العطر وأخذ يرشّ رأسه ولباسه...

ثمّ صبّ كمية في كفه ومرّغ بها وجهه ورقبته...

ألقى نظرة أخيرة على صورته...

ثمّ اختار ابتسامة شدّها على شفتيه...

وخرج من الغرفة لينزل إلى الأرضية...

قالت له أمّه وهي تشيّعه بنظراتها:

– " ما تنساش باش تعيّد على الجماعة "...

وقف في السقيفة لحظة يستمع إلى ضجيج الحركة القائمة على قدم وساق في الفناء الدّاخلي...

فأحسّ بالحرج كأنّه غريب...

فلولا رغبته الملحة في التصالح معها لما تجرّأ ولبس ثيابه الجديدة قبل الآخرين...

كان يريد دائما الظهور في آخر لحظة حتى يلفت إليه الأنظار...

لكنّه فعل العكس هذه المرة لأنّه لم يعد يتحمّل فراقها أكثر...

اجتاز عتبة السقيفة...

فوجد نفسه وسط الفناء وعيون الجميع ترمقه...

وتعالت أصوات الحاضرين بمختلف التعليقات...

– " يا... عبد الستار صحة !.. "

– " ووه ءآش بيك ما تعيّدش؟ ... "

– " ما أحلاها ما أحلاها كسوتك "...

– " يامي... عبد الستار لبس، وأنا مازلت، هيّا لبّسني عاد"...

كان يستمع إلى الأصوات كما لو كان في دوّامة...

بقي مشدوها فلم يتقدم خطوة ولم يقدم التهاني لأحد...

توجه في شرود نحو غرفة خالته منوبية...

فرفع (الإزار) وتخطى العتبة العالية...

فإذا بالعائلة الصغيرة مشغولة بوضع الحلويات في الصحون...

نظرت إليه خالته منوبية وقالت:

– " أهلا، عبد الستار، زوز تفضل"...

لأول مرة منذ أعلن القطيعة سمع صوته:

– " عيدك مبروك خالتي منوبية "...

وقبّل خالته...

فناداه عمّه الهاشمي قائلا:

– " عبد الستار، هيا إيجا، عيدك مبروك ولدي "...

– " عيدك مبروك عمّي الهاشمي"...

وسمع خالته منوبية تقول لابنتها رشيدة:

– " قوم، واحشم، وعيّد على خوك "...

فلم يعرف كيف قبّل عمّه الهاشمي...

ولا كيف أخذ منه (المهبة)...

وأحس بقلبه يخفق بقوة عندما اقتربت منه رشيدة وانحنت عليه قليلا لتقبله...

فطبع بدوره قبلة أولى على خدّها الأيمن وثانية على خدّها الأيسر...

وأحس بشعور لذيذ يسري في كامل جسمه ويرش عروقه برذاذ وردي عذب...

فنظر إليها نظرة حبّ...

فأعجبه شعرها المتهدّل على جبينها وكتفيها...

وتمنى لو قبّلها على شفتيها...

ابتسمت له ابتسامتها العذبة...

فظهرت أسنانها الصغيرة الحلوة...

ثمّ مسحت في حنان بيدها شعره ووجهه وقالت:

- " هيا قول لتاتاتك، سامحني"...

وانهار تحت رغبتها...

أحسّ أن الماضي ذهب بأحزانه في غير رجعة...

فنسي الدموع والأشواك والحرمان...

وابتسم لها في حبّ وقال:

- " سامحني، والله نحبّك "...

وما إن قالها حتى ضمته إلى صدرها بكل قواها وقبّلته ثانية...

فتمنى لو كان معها في خلوة حتى ينهال عليها تقبيلا...

وحتى يشرح لها ما يعتمل في قلبه الصغير من حبّ ولوعة بجمالها وسحرها...

لكنه سكت مرة أخرى ولم يقل شيئا...

– " اسمع ما نحبّكش تتغشش والله والله إلاّ ما نخذلك مرى تهبّل"...

فنظر إليها وابتسم في مرارة...

لم يسمع خالته منوبية عندما عرضت عليه قطعة (بقلاوة)...

وخرج من الغرفة يجرّ أذيال سعادة منقوصة...

ولم يعرف الجميع آنذاك...

لماذا نزع عبد الستار ثياب العيد مباشرة بعد أن خرج من غرفة أم رشيدة...

حتى أمّه تعجبت من ذلك ودعت عليه وقالت:

– " شهر كامل وأنت تِمْحِرْ على كسوة جديدة "...

" ونهار العيد تخرج كيف الطالب قدام الناس "...

وتساءل بينه وبين نفسه:

– " النّاس؟ آما ناس؟ ... "

وخرج إلى الشارع من جديد...

فجلس حزينا في مقهى الحيّ ينظر إلى الفراغ...

ويستعرض أحلامه الضائعة، متحسّسا جبينه، لا يدري ما يفعل...

فحرّك رجليه في الهواء وأخذ يصفّر...

الأخطاء السّعيدة

(في دكان أحذية من الطراز الأنيق...

السيد محمود صاحب المتجر في خصام مع سامية... العاملة الأولى...)

محمود: *(ورذاذ لعابه يتطاير في الهواء...)* كيف؟ وتقولين أنك لم تجدي العلبة؟ ...

ألم أقل لك خبئيها مخافة الاختلاط بالعلب الأخرى أو التلف؟..

سامية: (*في خوف كاذب*) نعم... نعم يا سيدي... ولكن...

محمود: ولكن ماذا؟ ... تكلمي...

سامية: نسيت أين وضعتها....

محمود: كيف؟ وتقولين هذا بكل بساطة؟ هذا لا يعقل... لا يعقل...

سامية: سأجدها يا سيدي... كن مطمئنا... سأجدها...

محمود: ستجدينها!... ومن قال أنّك ستجدينها؟ ... (*يصمت قليلا*)

اسمعي...

سامية: ماذا؟ ...

محمود: إذا لم تأتِي بالعلبة الضائعة قبل قدوم صاحبتها فإنني سآخذ ثمن الحذاء من مرتبك...

أفهمت؟ ... وليكن بعد ذلك الطوفان...

سامية: (*في سخرية مكتومة*) وليكن بعد ذلك ماذا يا سيّدي؟ ...

محمود: ... الطوفان... ومن أنذر فقد أعذر...

(*يخرج كما لو كان شيطان يطارده*)...

سعاد: (*في لهجة ساخرة*) إنّك يا عزيزتي تشبهين – صندريلا – في ضياع الأحذية...

نادية: (*بنفس اللهجة*) قد قلت حقا يا سعاد...

ثم... إن – صندريلا– تفقد أحذيتها في منتصف الليل...

بينما سامية تفقدها في ضوء النّهار...

سعاد: زيدي على ذلك...

إن أحذية سامية الضائعة لن يجدها أمير الأحلام والحب كما حدث مع صندريلا الجميلة...

نادية: لن يكون أميرا بالطبع...

ولن يكون إنسانا آخر أيضا...

(*نادية وسعاد تضحكان*).

سامية: (*تصرخ*) كفاكما سخرية...

لقد كرهت الثرثرة والمزاح الثقيل...

نادية: أوه... لا تغضبي... لا تغضبي يا جميلتي...

سنحاول معا البحث عن العلبة الضّائعة أليس كذلك يا سعاد؟...

سعاد: طبعا... طبعا...

(*في هذه اللحظة يدخل منير – حريف ما– وسيم... جميل أنيق*)

منير: صباح الخير...

سامية: صباح الخير... تفضل...

نادية: (*تهمس بين أسنانها*) يا له من شاب وسيم...

سعاد: (*في همس أيضا*) يا للجمال... يا للأناقة...

منير: (*يدخل ولا يتكلم*).

سعاد: تريد شيئا يا سيدي؟ ...

نادية: تفضل... اجلس... اجلس ريثما أحضر لك ما تريد...

سعاد: أتريد اللون الأحمر... أم تفضل الأسود... أم...

نادية: (*تقاطعها*) أم الرمادي... أم...

منير: شكرا... شكرا... أنا لا أريد شيئا سوى الحديث إلى هذه الآنسة (*يشير بإصبعه إلى سامية*) إلى هذه الآنسة... شكرا...

نادية: (*خائبة*) كم هي محظوظة... هذه الطفلة...

سعاد: (*في حسد مكتوم*) بل قولي إنها الحظ نفسه...

منير: (*يخاطب سامية*) لقد أتيت يا آنستي لإرجاع هذا الحذاء وإبداله إن أمكن...

نادية: (*في تطفل*) لقد كنت واثقة من ذلك...

سعاد: وأنا كذلك...

نادية: إن الدار لا توافق على إرجاع الأحذية يا سيدي ...

كان من حقك اختيار النوع الذي يوافقك من الأول...

منير: (*في تعجب*) كيف؟ هذا غير ممكن؟ ...

سامية: معذرة يا سيدي...

منير: ولكن الخطأ ليس خطئي... لقد...

سامية: خطأ من إذن؟ ...

منير: لست أدري... لقد طلبت حذاء لي...

ولكن يبدو لي أنّك أعطيتني علبة بها حذاء للنسوة...

انظري (*يفتح العلبة فإذا بها حذاء للجنس اللطيف*).

سامية: (*تنتفض انتفاضة سرور وخجل*) أوه... هذا هو الحذاء المفقود...

إن صاحبته ستأتي في المساء... يا لحسن الحظ...

(*تخاطب منيرا*) تفضل... تفضل يا سيدي...

اجلس سوف أحضر لك ما تريد... تفضل...

منير: (*يجلس*) سبحان مغير الأمور...

حقيقة أنا لم أفهم شيئا...

(*تذهب سامية لإحضار الحذاء الجديد، بينما يجلس منير متعجبا ؟!*)...

سامية: (*تأتي وعلبة بين يديها تجلس عند قدمي منير وتحاول أن تلبسه حذاء...*) ادخل رجلك في الحذاء...

(*ثم تهمس*) إنّه شاب رائع... ولكن... ربما حملني على السذاجة والبساطة وقلة الذكاء بسبب ما صدر مني؟! ...

منير: (*يحاول إدخال رجله في الحذاء، ويهمس في حلم...*) إنّها فتاة رائعة فاتنة...

يا للشلال الأشقر المتهدل على كتفيها الجميلين...

إنها حقا ساحرة...

سامية: (*تخاطب منيرا*) آه... والآن... أظن أنك تشعر براحة رجلك في الحذاء...

أليس كذلك؟

منير: نعم... نعم... ضعيه في العلبة... شكرا...

سامية: (*تضع الحذاء في العلبة*) تفضل... ومعذرة إن نحن سببنا لك بعض المتاعب يا سيدّي...

منير: (*يتسلم منها العلبة*) أحسنت (*يبتسم لها في حب ويخرج*).

نادية: ألم أقل أنك محظوظة؟ ...

أرأيت يا صندريلا كيف أتى لك أمير أحلامك بالحذاء الضائع؟...

(*نادية وسعاد تضحكان في سخرية*).

سامية: بالله عليكما لماذا تضحكان؟ ...

سعاد: إننا نتساءل عن الشيء الذي أخذ بصرك وأنت تضعين الحذاء في رجله؟ ...

نادية: لا تحاولي النكران...

لقد رأيناك تحملقين في وجهه كالجائعة...

سامية: أوف... إنني أتعجب أحيانا كيف يخطر على بالكما مثل هذه السخافات...

أيعقل أن أحب شخصا مجهولا جاء مرة لكي لا يعود؟ ...

(*فجأة يدخل منير وبيده العلبة*).

سعاد: ولكن...

نادية: آه...

سامية: أنت؟

منير: نعم أنا... لقد عدت مرة أخرى... معذرة...

سامية: ولكن ماذا حدث؟ ...

(*نادية وسعاد تبتسمان في سخرية*).

منير: (*يفتح العلبة*) انظري... ليس في العلبة إلا فرد فقط ...

في حين أنني دفعت ثمن حذاءين على ما أظنّ...

سامية: (*في خجل*) أوه...

(*تأخذ في البحث عن الحذاء الآخر وتهمس*): لا شك أنّه يسخر

منّي في قرارة نفسه...

يا إلهي ماذا فعلت...

منير: (*يهمس في لذة*) يا لها من فتاة رائعة حقا...

أتمنى على السماء لو تخطئ مرة أخرى حتى أجد سببا لرؤيتها من جديد... وحتى لا أحرم بصري من جمالها الساحر الفاتن...

سامية: آه... أخيرا... لقد وجدته...

منير: (*يهمس بين أسنانه*) يا لسوء حظي... لقد وجدته... وبسرعة أيضا...

لقد حرمت من فرصة ثمينة أمتع فيها بصري بجمالها الصارخ...

سامية: (*تقدم إليه العلبة*) تفضل يا سيدي... ومعذرة مرة أخرى...

منير: شكرا... المعذرة أيضا يا آنسة... إلى اللقاء... (*يتسم لها في عشق ويخرج*).

سامية: (*تنظر إليه في حلم وتهمس*) مع السلامة...

(*تمر لحظة... ثم تقفز سامية من على مقعدها فجأة كأنها تذكرت شيئا هاما...*)

نادية: (*تسألها في فضول*) ماذا أصابك أيضا؟

سامية: يا إلهي... لقد أعطيته زوجا لنفس الرّجل... لقد أخطأت مرة أخرى...

يجب أن ألحق به... بسرعة وإلا عاد من جديد يا للمصيبة... يا للخجل...

نادية: أوه... لا تقولي أنّك تكرهين عودته إلى هذا الحد...

سامية: لك أن تقولي ما تشائين...

أنا خارجة سألحق به...

(*تأخذ العلبة وتتجه نحو باب الخروج، ولكنها تقف وجها لوجه مع محمود صاحب الدكان...*)

محمود: أين أنت ذاهبة بهذه السرعة؟ ...

سامية: أنا؟ سآتي حالا يا سيدي... سأعود بسرعة... لن أتأخر...

(*تتركه واقفا وتخرج*).

محمود: عودي إلى الدكان...

عودي إلى الدكان حالا...

سامية: سأعود بسرعة يا سيدي... سأعود...

محمود: قلت لك عودي إلى الدكان حالا...

سامية: (*تواصل سيرها على الرصيف في صمت*).

محمود: أنت ذاهبة؟ اذهبي إذن بلا رجعة...

لن تعودي إلى هنا... هل سمعت؟ ...

لن تضعي رجلك هنا ثانية...

سامية: (*تفتّش بعينيها وفي حيرة عن الشاب...*) أين هو يا ترى؟ كيف أتمكن من...

آه إنّه هناك (*تنادي*) اسمع... اسمع يا سيّدي...

منير: (*يلتفت صوب الصوت*) أنت ؟.. أهلا... ماذا حدث؟ ...

سامية: (*وقلبها يكاد يخرج من صدرها*) معذرة مرة أخرى...

لقد سببت لك قلقا كثيرا بأخطائي المتكّررة... أنني...

منير: (*يقاطعها*) أوه... بالعكس...

أنا لم أشعر أبدا بهذا...

ثم ما الخطأ السعيد الذي حدث أيضا؟ ...

سامية: (*في خجل*) لقد أعطيتك زوجا لنفس الرجل ولم أتفطن إلى ذلك إلا بعد خروجك من الدكان...

فأردت اللحاق بك حتى لا تتعب نفسك مرّة أخرى (*تقدم له العلبة*) تفضل ولنحاول أن لا نخطئ مرة أخرى...

منير: لقد أتعبت نفسك حقا يا آنسة...

ما كان من حقك إزعاج نفسك هكذا؟ ...

ثم ماذا قال لك صاحب الدكان... هل تركك تخرجين؟ ...

كأنّني سمعته يصيح... ويتوعّد...

سامية: صاحب الدكان؟ ذلك الفأر القذر...

لقد حاول منعي بالطّبع ولكنني خرجت رغما عنه...

فما كان منه إلا أن أطردني متوعدا: لن تعودي إلى هنا...أبدا...

منير: يا للمصيبة كلّ هذا من جرّائي...

سامية: أوه... لا تقل هذا بالعكس ... أنا المتسببة في كل ما حدث...

منير: يا له من رجل قاس... يطرد فتاة جميلة مثلك؟ إنه رجل بلا ذوق...

سامية: يبدو لي أنني والحظ... عدوّان منذ البداية...

منير: لكنني أشكره على كل حال... لأنه أحسن العمل في هذه المرة...

سامية: من؟

منير: صاحب الدكان... طبعا...

سامية: تشكره؟ أحسن العمل هذه المرة؟ أنا لم أفهم؟ ...

منير: أجل... أشكره من صميم قلبي... لأنه عرفني بأجمل امرأة في العالم...

سامية: هذا من حسن لطفك... لكن...

منير: وستعملين من اليوم معي... إنني أملك معملا للأقمشة... لا شك إنّه سيعجبك كثيرا...

سامية: معمل للأقمشة؟ ...

منير: وستكونين أنت العاملة الأولى بالمصنع... آه ما رأيك؟ ...

سامية: ... ؟ ...

منير: تكلّمي... ما بالك صامتة؟ ...

سامية: إنني أتعجب من سرعة الأحداث..

إن الأمور تجري بسرعة البرق حقا! ...

منير: (*ينظر في عمق عينيها مليا*) ألم تفهمي؟

سامية: لا...

منير: لأنني أريد أن أراك دائما...

لأنني لا أستطيع الحياة بدونك...

وأخيرا لأنني... أحبّك من كل قلبي...

أحبّك من كل قلبي.

سامية: أوه... إنّك تقول هذا ولا شك لأنك ترأف بي...

منير: لا يا آنستي الصغيرة...

إنني أقول لك هذا لأنني أحبّك أن تكوني... زوجتي...

فما هو رأيك؟

وأرجوك لا تقولي لا...

أو دعني أفكّر...

سامية: ربّما كنت أعرف هذا من قبل...

ولكنني أردت أن أسمعه من فمك حتى أتحقق وأكون واثقة من مشاعرنا المتبادلة...

منير: الآن سأعيد على مسمعك ما قلته مرة ثانية:

ستصبحين زوجتي وسأحبك حتى الموت...

ستصبحين زوجتي وسأحبّك حتى الموت... ستصبحين زو...

سامية: (تبتسم في حب) حسنا... حسنا... لا داعي للصّياح...

منير: ولكن على شرط...

سامية: ما هو؟

منير: عليك بمراقبة العاملات في المعمل حتى لا يفقدن عقولهن عند بيعهن القماش للحرفاء...

سامية: (تضحك) أعدك بذلك...

منير: يطوّقها في حب ويسير معها على الرصيف...

بينما بقي بائع الأحذية إلى اليوم...

ينتظر عودة العاملة التي خرجت كالمجنونة ذات صباح من الدكّان ولم تعد!

دمية زيّا

قال يخاطبها كما لو كانت أمامه:

– " احتراما لما وعدتك به... ها أنا أكتب إليك يا عزيزتي..."

لقد فكر في الكتابة إليها...

منذ أن تركها مساء الأربعاء الماضي...

وعاد إلى بيته... أو بالأحرى إلى بيت تلك الفرنسية...

فقد كان مطالبا بإعطاء درس في اللغة العربية لابنتها...

أراد أن يطمئنها فكتب مضيفا:

– إنّها بنية صغيرة... وأمّها ذات مستوى رفيع... زوجها تونسي عاد ليقيم مشروعا هنا...

وكمن أراد تغيير الموضوع قال لها:

– إن أجمل ما في هذه المهنة المرهقة... هو هذا الاحترام الذي نلمسه في عيون الآخرين...

– "...يعني ؟!"

– شخصيا... أحسّ بأن لي قيمة لدى أولياء تلاميذي...

– "... فقط ؟!"...

– طبعا... وتلاميذي أيضا...

وتخيلها وهي تبتسم في – ذكاء – ... فأضاف:

– طبعا المهم في الحكاية هو ما سيبقى لي في النّهاية...

– "...يعني ؟!" ...

– يعني... أنت يا عزيزتي...

عندما عاد إلى البيت... وجد العائلة كلها في انتظاره... والعشاء كذلك! ...

بقي قليلا مع الجماعة كما لو كان مهتما ببرامج التلفزة...

ثم انسحب معتذرا... ودخل غرفته... ليختلي من جديد بالدمية الصغيرة التي بعثت بها إليه بمناسبة عيد ميلاده...

دمية صنعتها بنفسها ولا تشبه في شيء تلك الدمى الصّناعية التي تملأ الأسواق...

دمية قدّت من القماش الرّفيع الخالص... قسماتها... وأطرافها... وأجزاء جسدها في منتهى الأناقة...

ولعل أجمل وأثمن ما فيها... شعرها الحقيقي الآتي من شعر حبيبته المنسدل دوما على كتفيها كشلال من حرير...

طال وقوفه أمام هذه الدمية السحرية وأحسّ وهي تمد إليه يديها مرحّبة كما لو كانت قربه...

فقال في شبه همس كأنه يخاطبها حقيقة:

– إني أحبّ هذه الدمية... لأنني أراك فيها...

قال ذلك... ورفع بصره إلى صورتها المعلقة وأضاف:

– أحبّك...

ثم انحنى على الدمية الصغيرة المتربعة على مكتبه وهمس:

– أنت أيضا... أصبحت أحبّك كثيرا...

هل تعرفين لماذا؟

ربما لأنك تحملين شيئا من حبيبتي...

أجل فخصلات شعرك أصبحت تغريني كلما أراك...

فاقترب في حب واضع شفتي عليها...

كما لو كنت أضم رأس غاليتي...

قال لها:

– كنت أبقى هكذا طويلا يا عزيزتي...

أستنشق في لذّة ودفء عطرك الآتي من لا أعرف من أين...؟

ثم أتمدد لاستمع إلى شيء من الموسيقى الهادئة تحملني إلى حيث خيالك المسافر كالحلم...

عندما جلس إلى مكتبه... وحاول مواصلة الكتابة إليها... لم يستطع... ولم يعرف لماذا؟ ...

فاكتفى بإخراج صورتها من حافظة أوراقه... ووضعها أمامه... وأخذ يحدثها في صمت:

– أحسنت فعلا عندما أهديتني هذه الدمية...

حين أراها... أحسّ كما لو كنت بقربي...

أعرف أنّك أجمل منها لكن...

يبدو لي أنها أكثر منك صراحة...

– "... كيف ؟!" ...

– لا تتعجبي... لقد قالت لي أشياء كثيرة... سأخبرك بها عندما نلتقي!...

لم يعرف كم بقي غارقا في عالم وجهها المرمري الحالم...

وسط زوبعة العطر والظلال...

ابتسم لها في حب... ثم طبع على جبينها قبلة وتمنى لها ليلة سعيدة...

عندما وصل إلى المعهد صباحا لم يشأ الدخول وفضل الوقوف على الرصيف أمام الباب الرئيسي...

كانت الساعة تقارب الثامنة عندما رآها مقبلة صحبة صديقتها الحميمة... نظر إليها في حب كأنه يقول لها: لماذا تأخرت؟ ...

ولماذا لم تأتي وحيدة حتى أتحدث إليك قليلا؟ ...

لكنها لم تقل شيئا واكتفت بأن ابتسمت له ابتسامتها الغامضة...

ودخلت المعهد رغم علمها بأنه يوّد التحدث إليها...

تعجب من تصرفها الغريب... وأحس بإحباط لا مثيل له...

بقي مشدوها كما لو كان وسط دوامة أفقدته توازنه...

ولم يعرف ماذا يفعل بالضبط...

أخيرا... قرر التقدم إلى بيت الحارس وقال:

– قل لها... بأنني سأنتظرها غدا عند منتصف النهار...

لكن جواب الحارس زاد من إحباطه عندما قال له:

– أرجوك لا تحرجني... لقد قالت لي آخر مرة... هذا لا يهمك...

***

ورغم ذلك... حاول مرة أخرى أن يدافع عنها...

أن يجد في كلمات الحارس... ما يبرر تصرفها...

وقال في قرارة نفسه:

– لعله لم يحسن إبلاغ التّوصية إليها...

ربما طلب منها ذلك أمام صديقاتها... من يدري؟ فلماذا الغضب؟ ...

ولم يعرف حقيقة شعوره نحوها في تلك اللحظة...

فقد كان إحساسه مزيجا من الألم والحب...

إحساس ما انفك يعذبه كل يوم أكثر ويزرع الأشواك في عروقه...

لم يعرف كيف عاد إلى البيت وكيف وقف أمام صورتها...

كان يحس برغبة ملحاحة في التحدث إليها بما لم تسمح به الظروف القاسية...

قال لها:

– كوني متيقنة بأنني لست غاضبا يا عزيزتي... فقط لأنني أحبّك...

بعد أن دخلت مع صديقتك... لم أشأ حضور الدرس...

تهت في شوارع المدينة حتى منتصف النهار...

دخلت إلى المطعم لتناول الغداء... ثم نزلت إلى القاعة لحضور درس في الرسم... وبما أنني لا أملك الكراس الخاص بهذه المادة... قدمت كراسك على أنه لي بعد أن رسمت اسمي على اسمك... فسامحيني...

صمت لحظة عندما قالها... كأنه ينتظر أن تقول كلمة...

لكن أمام صمتها الدائم... أضاف قائلا:

– لعل أجمل ما في هذا اليوم الحزين...

هو غياب أستاذ الرياضيات...

لكن عندما أردنا مغادرة القاعة... طُلب منا البقاء لأن القيم العام سيوزع علينا منحة أوّل شهر تربص...

فاهتزت قلوبنا جميعا لذلك وأحسسنا بأننا ودعنا الإفلاس نهائيا...

عندما وضع الورقة في جيبه... خرج كالشبح وقصد المحطة...

كان واثقا من أنّه سوف لن يلقاها...

ورغم ذلك فقد انتظرها أكثر من نصف ساعة...

وبقي أمام مدرستها ينظر إلى نوافذ قسمها لا يعرف هل خرجت أم لا؟

كانت الأضواء مطفأة وجوّ المكان ثقيلا... حزينا كقلبه المتجهم...

ورغم ذلك... لم يشأ الرجوع إلاّ بعد التثبت...

فتقدّم من الباب الرئيسي وضغط على الجرس عدّة مرات...

لكن شيئا لم يحدث فعاد إلى البيت حزينا...

... نظر إلى الدّمية فإذا بها تبتسم له في حبّ كما لو أنّها تقول له:

– "لا تحزن... أنا معك"...

فأخذها بين يديه... استلقى على فراشه... ووضعها على وجهه ليستنشق رائحتها العطرة...

رفعها قليلا وقال في شبه همس:

– رغم كل ما قلت وما أريد أن أقول...

أشعر بالكلمات تموت على شفتي...

فلماذا أنت صامتة؟ دائما صامتة؟

إنّ ابتسامتك هي تأشيرتي الوحيدة للسفر إلى جزري الوهمية...

بحثا عن حبيبتي الضائعة...

صديقتي الصغيرة

مضت على هذه الحادثة مدة طويلة...

لكن رغم ذلك أشعر كلما تذكرتها بأشياء تؤلمني وتسبب لي أوجاعا في عروقي...

وهي على بساطتها تحتل في نفسي مكانة حلوة دافئة...

تزداد حلاوة ودفئا كلما عادت بي الذكريات إلى حيث وقعت في الماضي...

وكثيرا ما يحدث ذلك فأشعر وأنا أرى صورها الدافئة على صفحة الأمس بأحاسيس مجهولة تفتت قلبي.

كنت أقطن آنذاك في حي البرتقال الكائن بالضاحية الشمالية للعاصمة...

وحي البرتقال هذا مكان هادئ جميل، تناثرت فيه بنايات بيضاء نظيفة وأشجار مثمرة دائمة الخضرة...

وكان منزلي في آخر الحي تقريبا منت عليه السماء زيادة على الأعشاب والأزهار المحيطة به، بساحة ترابية صغيرة... يجتمع فيها الأطفال كلّ مساء وبعد العودة من المدارس للّعب والجري والمرح...

وقد اعتدت كل يوم، وحين أعود أنا بدوري من المعهد أن أضع محفظتي في المنزل وأتناول لمجتي ثم أخرج لأجلس على كرسي أمام الباب الحديدي لمطالعة قصة أو مجلة...

ولم تكن المطالعة هي التي تهمني وحدها فقد كان يلذ لي الجلوس في ذلك المكان من الساحة لما وجدته فيها من أشياء تمتع نفسي، وتزيل ما علق بها من إرهاق السير والدرس...

فهذه الزهور بألوانها، وجمالها وأريجها...

وهذا النسيم العليل المعطر...

وهؤلاء الأطفال الصغار...

كل ذلك كان يبعث في نفسي حب البقاء والمزيد منه...

ورغم لعب الأطفال أمامي وضحكاتهم البريئة وصراخهم المزعج أحيانا، كنت لا أشعر أبدا بالقلق أو الضيق، بل أحس وأنا أتتبع جريهم وقفزهم بلذة تجتاح جسمي وبحنان يغمر قلبي...

فأبتسم في صمت وأفكر.

وتمر اللحظات وأنا أنظر إليهم في حلم، والكتاب أو المجلة في يدي، فلا أنا أخفض بصري لأقرأ فصلا ولا أنا أسأم.

ومرت الأيام فلم تتغير عادتي ولم يتغير المشهد...

وذات يوم، كنت كالعادة جالسا أمام الباب الحديدي، والمجلة في يدي، لاحظت من بين الأطفال بنيّة لم يتجاوز سنها العاشرة تقريبا تقفز وتلعب وتضحك كثيرا.

فقد كانت صغيرة جميلة، وهبتها الطبيعة من سحرها مسحة من السمرة الخلابة الدافئة...

فبدت لي كأروع ما يكون الجمال من حيث الفتنة الهادئة والإغراء البريء.

ووجدت نفسي مدفوعا إلى أن أبقى أنظر إليها طويلا، وأتتبع حركاتها وأحيا مع ضحكاتها، وأمرر بصري على كامل أجزاء جسمها الملائكي الصغير...

لقد أحببتها من كل قلبي...

أحببت فيها شعرها الأسود المتهدل على كتفيها النحيلين...

أحببت فيها خصلة الشعر النازلة دائما على جبينها...

أحببت فيها أسنانها الصغيرة البيضاء...

أحببت فيها كل شيء...

حتى حذاءها المزركش الملون بالتراب...

وشعرت فجأة أنني أصبحت أحبّ مكاني، والساحة الصغيرة، والزهور أكثر من أي وقت آخر...

كما شعرت أن حبّي الذي كان يتقاسمه جميع أطفال الساحة قد استرجعه قلبي منهم، ليقدمه إلى سمرائي الصغيرة...

وشعرت بسعادة عارمة تغمرني وبت أتمنّى على السماء أن تجعل الفتاة الصغيرة تأتي إلى الساحة كل يوم...

حتى أعيش ولو لمدة قصيرة في جوها المفعم بالبراءة والسعادة والجمال...

وكأنّ السماء لمست صدق عواطفي نحوها، فاستجابت لندائي...

وأصبحت السمراء الصغيرة تأتي كل يوم إلى الساحة الترابية للعب والضحك مع أطفال الحي.

كنت أكتفي بالنظر إليها من بعيد وهي تجري وتقفز وتضحك...

فلم أحاول البتة أن أستدعيها للحديث معها قليلا كما كنت أفعل أحيانا مع الأطفال الآخرين...

مع أنني كنت أرغب في ذلك كثيرا...

كنت أتمنّى أن يسوقها القدر إليّ فتقف بجانبي شأن أترابها لتعرف ماذا أفعل؟ ...

وما هذا الكتاب الذي أطالعه؟ ...

وهل هو ملك لي أم أن المعلم هو الذي أعطانيه؟ ...

أجل كنت أريد أن أستمع إلى أسئلتها البسيطة...

كنت أريد أن أستمع إلى ثرثرة الأطفال من فمها اللوزي الجميل...

كنت أود لو تأتي بقربي حتى يلامس فستانها المزهر الجميل أطراف ثيابي...

وحتى يعبث النسيم بشعرها الأسود، فتتناثر خصلاته على جبينها وعينيها السوداوين...

وتحقق أملي أخيرا...

كنت جالسا كعادتي انظر إليها وهي تلعب مع الأطفال لعبة الغميضة...

فإذا بأحد الصّغار يأتي مسرعا للاختباء ورائي...

وتركته يفعل ذلك...

بينما تناثر الآخرون هنا وهناك يفتشون عن أماكن يختبئون فيها...

وكانت الطفلة هي التي أغمضت عينيها...

وما إن اختبأ جميع الأطفال حتى فتحت السمراء الصغيرة عينيها وبدأت تبحث ببصرها عن " صيد" تقبض عليه...

ومضت لحظات وهي تقفز كالأرنب الجميل وتبحث في ابتسام ينم عن ذكاء...

إلى أن وقع بصرها على الطفل الذي بقربي...

فاتجهت نحوي في خفة وسبابتها على فمها كأنها تقول لي: "لا تتكلم!".

وابتسمت لها، وابتسمت لي وهي تقترب مني...

ولم أشأ أن أخبر الطفل المختبئ ورائي بقدومها حتى تنتصر في اللعبة...

وزادت فاقتربت مني أكثر...

وفجأة صاحت وهي تضع يدها اللطيفة على ظهر الطفل:

- آه... لقد وجدتك... لقد وجدتك... أخرج من مخبئك... هيا أخرج...

وأعجبني صياحها المفعم بالدلال، وكلماتها المفعمة بالبراءة...

فغرقت في جمالها وأنا أنظر إليها نظرات لا تنتهي...

وسمعت الطفل يحتج ويصيح بدوره:

- لا... لا أقبل... لقد قال لك عن مخبئي... لا أقبل... لا أقبل...

وأردت أن أقول شيئا...

أن أدافع عن الطفلة وأقول الحقيقة...

ولكن الكلمات ماتت على شفتي عندما تناهت حروفها العذبة إلى مسمعي:

– هذا غير صحيح... لقد اهتديت إليك بنفسي... إن حذاءك هو الذي دلني عليك...

والتفتت إليّ وقالت تسألني وخصلة الشعر فوق وجهها:

– أليس كذلك؟ ...

وشعرت بالسعادة وهي تسألني...

فنظرت إليها وملأت عينيّ من نور عينيها وقلت:

– فعلا أنا لم اقل لك شيئا... لقد توصلت وحدك إلى المخبإ...

– فالتفتت إليه وقالت:

– هل سمعت... هيا... انهض... انهض...

فقام الطفل، وسار خائبا ويد الطفلة السمراء تشده من خلف إلى أن وصلا إلى حلقة الأطفال...

وتواصلت اللعبة بين أخذ ورد وجري وقفز في الساحة الصغيرة...

والضحك والصراخ يملآن الجو حيوية ومرحا...

وبقيت في مكاني أرقبها وأعيد إلى مسمعي كلماتها الحلوة... وخصلتها السوداء لا تفارق خاطري...

إلى أن لف شبح الظلام أفق السماء... فعاد الجميع إلى البيوت...

***

ولما كان الغد...

أحسست فجأة وأنا أنظر إلى مجلة في يدي بهمسات وابتسامات تحوم حولي...

فرفعت بصري فإذا بي وجها لوجه مع الملاك الصغير...

كانت هي... ونظرت إليها باسما...

فابتسمت لي بدورها ولم تتكلم...

بل بقيت تداعب بأصابعها الحلوة أزرار فستانها الأزرق...

فإذا هي أجمل من الأمس بكثير...

وزدت فابتسمت لها ثانية...

وقلت وأنا أنظر إلى خصلة الشعر الراقصة على جبينها:

– لماذا تركت الأطفال وحدهم... أنت لا تريدين اللعب؟ ...

وانفجرت شفتاها عن ابتسامة كانبثاق الصبح وقالت في دلال:

– لم أعد أرغب في اللعب معهم... إنهم محتالون...

وتقدمت نحوي أكثر في شيء من الخجل وأسندت ظهرها إلى الحائط...

ثم قالت وهي تشير إلى حلقة الأطفال المتوترة:

– أنظر إليهم... دائما في خصام وصياح...

فحولت بصري إليها وقلت أسألها:

– وأنت ألا تحبين الخصام والصياح؟ ...

فشدت على شفتيها ابتسامتها العذبة وأشارت إلى نفسها وقالت:

– أنا؟ أنا لا أحب سوى اللعب الهادئ... هكذا أوصتني ماما...

وكدت أن أضمها إلى صدري...

فقد كانت كلماتها حلوة وصوتها البلبلي أحلى من الكلمات...

وبقيت أنظر إليها وكأني أراها لأول مرّة...

قالت تسألني:

– وأنت؟ ألا تلعب أحيانا؟ ...

وأضحكني سؤالها البريء فقلت لها:

– أحيانا عندما أجد شخصا أتفق معه والهواية...

– وما هي هوايتك؟ ...

– كرة الطاولة، وأنت؟ ...

ابتسمت ابتسامة خفيفة وألقت عليّ نظرة حالمة وقالت:

– أنا أحب النط على الحبل... وأحب السباحة أيضا...

ثم سكتت بعد ذلك وزادت فاقتربت مني أكثر...

وبدأت تتطلع بعينيها إلى المجلة التي بين يديّ في صمت وفضول...

وأحسست ومرفقها يلامس مرفقي بتيار من الدفء يدفعني إلى النظر إليها من جديد...

رفعت إليها بصري فإذا بابتسامتها الهادئة لا تزال ترفرف على شفتيها وخصلتها السوداء ترقص في دلال على جبينها الأسمر الجميل.

وخفت أن يبعدها الصمت عنّي، وأردت المزيد من الحديث معها، حتى أرتوي من صوتها البلوري العذب... فقلت أسألها:

– وإلى جانب اللّعب ماذا تفعلين؟ ...

– فنظرت إلى اللاّ شيء ثم إليّ وقالت:

أذهب للمدرسة طبعا... و... وعندما أعود مساء أرتاح قليلا ثم أكتب دروسي وأتعشى وأقرأ قصة وأنام...

– وماذا تقرئين؟ ...

– كل ما يعجبني من القصص والأساطير...

ثم صمتت لحظة وقالت تسألني في فضول لذيذ:

– ما هذا الذي تطالعه؟ ...

قالت ذلك وقرّبت وجهها من وجهي لمعرفة عنوان المجلّة التي أمامي...

كانت خصلاتها السوداء الحريرية... تلامس وجنتي وشفتيّ...

فتبعث في أوصالي موجات من العواطف الوردية...

وشعرت بأصابعها تمتد في رفق نحو المجلة فتأخذها من بين يدي...

وتركتها تفعل، ونظراتي الحائرة لا تزال تتبع خصلة الشعر الراقصة فوق الجبين وهي تتصفح المجلة...

وشفتاها ترددان في همس عناوينها البارزة...

فتمنيت آنذاك أن يزداد حجم المجلة حتى لا تنتهي الصفحات...

وحتى تبقى صديقتي الصغيرة، بجانبي أطول وقت ممكن... لكن توقّفت أصابعها عن التصفح فجأة! ...

فحدقت فيها أكثر، مخافة أن تنتهي الجلسة وينتهي اللقاء وتذهب...

فإذا بها تبتسم في حلاوة ونظراتها لا تزال ترقص مع الحروف...

وأردت أن أسألها عن سر ابتسامتها، فخفت أن يكدرها سؤالي...

فابتسمت بدوري في صمت...

عندها رفعت إليّ عينيها وقالت بصراحة تسألني:

– أهذه هي ممثلتك المفضلة؟ ...

قالت ذلك وأخرجت من بين صفحات المجلة صورة لممثلة إيطالية مشهورة، كنت قد وضعتها بين صفحات المجلّة...

وشعرت بالخجل يغمرني...

فقد كانت الصورة لامرأة شبه عارية ما كنت لأظهرها أمامها لولا الصّدفة...

ورأيتها تنظر إليّ والصورة في يدها، نظرات عميقة المعاني...

وابتسامتها الذكية لا تفارق فمها اللوزي الجميل...

فنظرت في عمق عينيها كأني أفتش عن الدافع الذي تركها تسألني وأجبتها...

– أوه... إنها صورة قديمة... وجدتها لا اعرف أين خيل إليّ أنني كنت مغرما بها...

فنظرت إلى الصورة من جديد من خلال خصلاتها السوداء ثم رفعت بصرها تسألني:

– والآن... مازلت... أقصد مازلت تحبها؟ ...

ودقّ سؤالها صدري كالسهم! ...

من أين لها كل هذا؟

من علّمها إلقاء الأسئلة الساخنة بهذه الكيفية؟ ...

ونظراتها الغامضة التي تؤلمني... هل خلقت لها رغم صغر سنها؟ ...

أن من يسمع أسئلتها وطريقة حديثها ونظراتها المليئة بالأسرار، يلمس ولا شكّ ما يختبئ في نفس هذه الحسناء الصغيرة من أشياء كثيرة قد لا تتسع لها نفسها ولا قلبها.

ونظرت إليها نظرة ارتباك وقلت لها:

– لا... لم أعد... أحبّها...

– لماذا؟ ... إنها جميلة كما ترى...

– أعرف... ولكن...

ونظرت إلى البنيّة... ونظرت البنيّة إليّ: ثم استجمعت قواي وقلت:

– ولكني لم أعد أحبها... لقد تيقنت من أن حبّ الممثلات لا يجدي نفعا، زيادة على أنه يضيع الوقت ويشتت العواطف...

وكأنها فهمت ما كنت أعني من خلال كلماتي...

فنظرت إلى الصّورة من جديد كأنها تريد أن تخفي الحقيقة البادية في عينيها، وقالت:

أنا لا أخفي عنك الحقيقة... إني أحبّها... لأنها ممثلتي المفضلة أيضا...

وأعجبتني جرأتها على ما هي عليه من غموض...

فقلت لها في شيء من الهزل:

إذن نحن نختلف في الذوق...

واختلج جسدها... وتظاهرت بأنها ندمت على ما قالت ثم أسندت ظهرها إلى الحائط وراحت تتفرس في عيني وما لبثت أن قالت في دلال:

– على كل... فإني سآخذ منك هذه الصورة... هل تسمح؟ ...

قالت ذلك بكل عفوية وأسرعت بإخفاء الصورة في جيب فستانها الأنيق... وتركتها تفعل ذلك...

فقد كنت مستعدا لان أقدم لها ما تريد، وأحقق لها كل طلباتها...

وشعرت وهي تبتسم لي برغبة تدفعني إلى طلب شيء منها...

وتحركت شفتاي في تردد وقلت لها في شيء من اللاّوعي:

– خذيها... ولكن بشرط...

فرفعت حاجبيها وقالت في تعجب جميل تسألني:

– وما هو هذا الشرط؟ ...

وران الصمت برهة قبل أن أجيبها...

فقد كنت عاجزا عن الجواب رغم بساطته...

ولكنني تشجعت في آخر لحظة وقلت وهي لا تزال تنظر إليّ من خلال أهدابها الحالمة:

– أن... أن تمنحيني... أن تمنحيني صورتك...

وحدقت في وجهي مليا...

فلم تكن تتوقع مني مثل هذا الطلب...

ولاحظت على وجهها علامات التعجب المكتوم وعلى شفتيها ابتسامة غامضة...

– " لا شك أنها غيرت من نظرتها لي الآن...

ما كان من حقي أن أطلبها هذا الطلب...

إني سأفقدها"...

هذه نظراتها التي كانت قبل الآن بريئة أصبحت مليئة بعبارات العتاب الصامتة...

وفتشت عن كلمات أعتذر بها لدى صديقتي السمراء، ولكن...

شعرت بلساني يكبله الخجل فتموت الكلمات في حلقي ولا تريد الظهور...

ورأيتها تفتح شفتيها تريد الكلام...

فانتظرت منها عتابا قاسيا وكلمات جارحة...

وتناهى إلى سمعي صوتها البلبلي يقول لي:

- سآتي بها إليك...

والتمعت عيناي دهشة...

كيف؟ هل يعقل؟ ...

- " إنها لم تعاتبني ولم تقل لي كلمات جارحة ؟ ...

أتراها فرحت لطلبي ؟ ..."

أم تراها خجلت مني فأرادت رغم ذلك تحقيق أمنيتي الغالية؟ ...

أتراها فهمت سرّ نظراتي المليئة حبا وعشقا؟ ...

الأغلب على الظن أنها كانت – رغم صغر سنها– تفهم أشياء الكبار وتحسن الحديث في الحب...

فصديقتي السمراء –كما عرفت من خلال ثرثرتها الحلوة– ثالثة أبويها... وأختاها اللتان تكبرانها سنا... منت عليهما السماء بصديقين يخرجان معهما غالبا للتجول هنا وهناك مما سبب لها فراغا عاطفيا كبيرا...

وعرفت بعد تعجبي الطويل... لماذا لم تغضب حين طلبت منها صورتها؟...

إنها تريدني أن أكون صديقا أو حبيبا لأيامها الآتية...

حتى ترضي أنوثتها الصغيرة، وجمالها الساحر أمام الجميع... حتى أمام أختيها... إنها تريد أن تظهر للجميع عدم عجزها – هي الصغيرة في اختيار صديق حياتها كالفتيات الكبيرات...

ولمست فجأة كل ما يختلج في صدرها الصغير من عواطف وأسرار وآمال...

فلم أشأ أن أتراجع في الطلب وقد وعدتني بتحقيقه...

وتركتها تودعني بكلمات دافئة، بقيت خيوطها الوردية تداعب خيالي الحائر...

لقد قالت لي بكل حب: "سآتي بها إليك"...

وبقيت أنا في مكاني أنظر إليها وهي تبتعد عني إلى أن دخلت حديقة منزلها...

فوقفت بدوري وحملت الكرسي ودخلت البيت في صمت...

وجدت أمي عند دخولي غرفة الأكل قد رتبت المائدة استعدادا للعشاء، فجلست مع إخوتي – لتناول الطعام...

وددت أن أقص على أمي وإخوتي كل ما حدث بصوت عال...

وأن أصف لهم شعوري نحو فتاتي السمراء...

وأن أفضفض عن الأحاسيس التي راحت تعتمل في نفسي ولكن...

كل ما استعطته هو أن أتناول الطعام في صمت وتفكير وسعادة...

وطال بي الذهول كثيرا...

طال إلى الدرجة التي شعرت معها، بنوع من الحب الأليم، يسربل قلبي، فيطرد عنه كل شعور آخر...

شعرت كما لو كنت أهمس في قرارة نفسي:

– "صديقتي السمراء

آه لو تعلمين كم أحبك"...

فجأة! ...

نهضت وأنا لا ادري هل أن طرقات على الباب تناهت إلى سمعي حقيقة أم لا؟ ...

وتسللت في ارتباك نحو الباب...

وبين حيرتي وتساؤلي، وجدت نفسي خارج الغرفة...

دلفت إلى البهو الفسيح وما إن وصلت الباب الحديدي حتى وجدتها...

صديقتي الصغيرة ؟!

وشعرت بارتباك كبير... فلم أدر ماذا أقول...

واكتفيت بأن هتفت أسألها في شبه همس:

أنت؟ ... ما الذي جاء بك الآن؟ ...

وراحت عروقي تنتفض بشدة، وشعرت بشبه دوار يكتسح كامل جسمي وسرت في أطرافي رعشة لم املك لها دفعا...

وبقيت لحظة أتأملها دون أن تتفوه بكلمة ثم قالت في شبه همس:

– إنك لم تكن تتوقع أن أعود إليك بمثل هذه السرعة... أليس كذلك؟...

ثم اصطنعت شيئا من الجد واستأنفت تقول:

– خذ... لقد فتشت في كلّ مكان عن صورة أحسن منها... ولكني لم أجد غيرها...

ووددت – وهي تقدم لي صورتها – لو أقبلها وأضمها إلى صدري بكل قواي...

لكنني اكتفيت بأخذ الصورة من يدها...

وبإشارة خفية مني...

دعوتها إلى أن تبتعد معي عن الباب الحديدي حتى لا تفطن أمي للأمر...

وابتعدنا عن الباب...

ووقفنا قرب عمود المصباح الكهربائي...

وتحت الضوء الأزرق بدأت في لهفة وشوق أنظر إلى صورتها المبللة بالعرق وهي تنظر إليّ باسمة...

وشعرت وأنا أتفحّص قسمات وجهها على الصورة وأقارنها بالقسمات الحية التي تقف إلى جواري بأشياء عجيبة تجتاح عقلي وتدفعني إلى قول أشياء دافئة ساحرة... آتية من لا أعرف من أين؟!!

شعرت بتلك الأشياء تختلج في نفسي وأنا أنظر إلى صورتها الصغيرة فحوّلت بصري إليها في حبّ ولون الضوء الأزرق الخافت يضفي على وجهها المزيد من السحر والإغراء...

فإذا بابتساماتها الحلوة لا تزال ترفرف على شفتيها، وخصلتها السوداء ترقص على جبينها...

وودت أن أصمت...

ولكني شعرت بالحروف تنفلت من العقدة التي كبلت بها لساني، فتنفتح شفتاي عن رعشة خفيفة وتخرج الكلمات إليها كالسهام:

– " اسمعي... إنني...

إنني أشكرك كثيرا على هذه الصورة...

لقد أعجبتني كثيرا... ولكني حين طلبتها منك كنت امزح...

فأنا... فأنا في الوقت الذي أقبل فيه الصداقة البريئة التي تجمعنا...

لا أقبل أن أحطم بيديّ أفكارك البيضاء...

لا أقبل أن أغير مجرى حياتك الهادئة بمثل هذه السرعة...
إنني أقدر عواطفك كثيرا...
وأحس بكل ما يختلج في قلبك من حبّ نحوي...
وأعرف كذلك أن لهذه العواطف وهذا الحب أسباب...
قد لا تعرفينها الآن لأنك صغيرة...
وأنا على يقين من أنك حين تصبحين فتاة كبيرة...
ستقدرين كلماتي هذه...
وستشكرينني كثيرا...
وستقولين:
" لقد أنقذني...
لقد أحسن فعلا عندما رفض صداقتي في وسط كالذي أعيش فيه...
وسط تتأوّل فيه النظرات والكلمات والصّداقات إلى أشياء أخرى بعيدة عن النظرات والكلمات والصداقات البريئة"...
"ثم أليس من الأحسن لك يا صديقتي أن تترقبي المستقبل؟ ...
حتما ستجدين فيه كلّ ما يحقق آمالك...
أو لعلنا نلتقي، فنكون أصدقاء كبارا بعد إحياء صداقة صغرنا هذه...
وكل ما أطلبه منك يا صديقتي...
أن لا تغضبي...

وأعلمي أنني لم أقل لك هذا...

إلاّ لأنني أحبك فعلا" ...

وصمتّ بعد طول حديث فإذا بها تنظر إلى قطرات العرق النازلة فوق جبيني المحموم نظرات ذابلة حزينة قاتلة...

وأردت أن أزيد فأشرح موقفي مليا...

فقد شعرت رغم كلماتي الكثيرة إنني لم أحسن التعبير كما يجب...

ولكن نظراتها الصامتة المؤلمة جعلتني كالصنم البارد لا أحرك ساكنا...

فبقيت أنظر إليها ولم أنبس ببنت شفة...

وران الصمت لحظة أحسست خلالها بندم يمزق صدري...

قطعه صوتها العميق الذي تناهى إلى سمعي كالسهم المسموم:

اعطني الصورة... هاتها!!

ونظرت إليها مليا قبل أن أمدّ لها يدي...

فإذا بها تنظر إليّ نظرات امرأة في الثلاثين...

وعرفت أنها لم تفهم كلماتي، ورمتني بأشياء لا أرضاها...

وحاولت ثانية أن أقول لها شيئا ولكنني لم استطع! ...

فاكتفيت بان مددت لها صورتها بأصابع مرتجفة وعلى شفتي ماتت كلمات لم تصلها...

مدّت يدها الصّغيرة وتناولت الصورة في صمت يائس...

ثم ألقت عليّ نظرة أخيرة حطّمت بها (كبريائي)...

وتركتني واقفا بلا وداع وانصرفت...

***

بقيت أنظر إليها وهي عائدة في حزن إلى بيتها...

وموجات سوداء من الندم تثور في أعماقي كأفاعي مجنونة تتلوى...

– لقد كنت سخيفا معها...

لقد كنت بليدا ...

ألم أجد وقتا آخر إلا هذا لإظهار فلسفتي ومروءتي؟ ...

" ألم أجد سواها لإبراز طهارتي ونقاوتي؟ "...

"كان في حسباني إنقاذها من التيار الذي انزلقت فيه أختاها...

لم أشأ أن تحيا معي مغامرة مراهق مذبذب في الحبّ...

لم أشأ أن ألوث جمالها وبراءتها بهمسات المجتمع التي لا ترحم...

ولكنها فهمت العكس وتركتني وانصرفت! ...

حتما سوف لن تعود أبدا...

وشعرت لأول مرة أنني أعبدها فعلا... أحبها أكثر من أي وقت آخر...

***

وتوقـف ذهـني عـن التفكـير وأنا قـابع علـى الرصـيف قـرب المصـباح الأزرق...

فجأة... انتفضت على صوت أمي وهي تناديني...

فتحركت في صمت وتقدمت نحو الباب الحديدي...

ألقيت نظرة حزينة على الساحة الصغيرة مكاني المفضل ودخلت...

***

ومنذ ذلك الحين...

غيرت مجرى حياتي...

فلم أعد أجلس كل مساء أمام الباب الحديدي...

ولم يدر أحد لحد الآن...

لماذا هجرت الساحة الترابية الصغيرة...

ساحتي التي كنت أحبّها... أحبّها كثيرا!

باربارا يا حبيبتي

لست أدري... لماذا أكتب إليك هذه الرسالة؟ ...

رغم كلّ ما حدث بيننا من دموع وأحزان! ...

أشعر وأنا أكتب إليك يا حبيبتي...

كما لو أن سماء فارغة... تملأ قلبي وعروقي! ...

– لماذا لم تأت؟ ...

صدّقيني إذا قلت لك:

– أنني انتظرتك طويلا...

بقيت واقفا على رصيف محطة القطار أكثر من ساعة...

وعندما تحرّك القطار الأوّل...

تركته يذهب...

وأنا أنظر إليه في ذهول! ...

وتساءلت آنذاك:

– تراها لماذا لم تأت؟ لماذا؟ ...

وشعرت بالفراغ يهزّني...

وبعجز قاتل يضغط على أعصابي...

وتحرّكت رجلاي... لتدفعني على الرّصيف القفر... في خطوات متثاقلة...

والتفت فجأة...

فكانت المفاجأة السّارة لقلبي...

وكانت عودتي إلى وعي الحياة...

– عزيزتي باربارا... أتيت رغم كلّ شيء...

– دقيقة واحدة وسأعود... أرجوك... دعنا ننهي المسألة بسرعة...

– لماذا تحاولين الفرار... وعدم رؤيتي؟ ...

ورأيتك تسرعين... محاولة الضياع وسط الجماهير...

فأسرعت نحوك... وكالكلب الوفيّ أخذت أجري وراءك...

ووضعت في شيء من القسوة يدي على كتفك...

– لكن لماذا؟ ...

وأحسست بالارتباك الذي اعتراك فجأة...

لكنك لم تقولي شيئا...

ودون أن أشعر... ضممتك إلى صدري بكل قواي...

صرخت بي قائلة:

– " شيء فضيع...

كان من حقي عدم المجيء...

كان من واجبك امتطاء القطار الأوّل...

كان من حقّك تجاهل كلّ ما حدث...

عليك أن تعلم... أنني أحمل ورائي حياة كاملة...

بينما حياتك خالية من كلّ المشاكل...

إنّك في أوّل الطريق... أما أنا..."

وأردت أن أقول كل شيء...

لكنّك صرخت في وجهي ثانية:

- " لا تقل شيئا... واتركني أذهب بلا دموع..."

ولم أقل شيئا! ...

كان قلبي وحده يتكلم بدموع عينيّ المبلّلتين...

ربما كان من حقي عدم البكاء...

لكنني كنت مخلصا لدموعي... لأنّها كانت الخيط الوحيد الذي يربطني بك...

ودفعتني وفككت يدك من يدي...

سمعتك تقولين في دفء:

- "أحبّ أن أقنعك بالحقيقة... أنّ مشاعرك أكبر من سنّك...

أنت يا صديقي الصغير... مازلت طفلا..."

***

ولم أقل شيئا! ...

وحتى لا نقف طويلا على رصيف الانتظار...

أخذتني إلى صالون صغير للشاي...

وجلسنا وجها لوجه كما يجلس العشاق...

– وجهك أجمل وجه رأيت... صدّقيني...

عزيزتي...

هل تذكرين هذا الصالون الشاعري الذي تحدثنا فيه أوّل مرّة ؟

وانساب صوتك الرائع ليقول لي:

– لم يكن ليحدث من ذلك أي شيء...

لو لم تطلب مني عمّتك مصاحبتك حتى المحطّة...

بدعوى أنّك لا تعرف المدينة جيدا...

– أنا فعلا لا أعرف المدينة جيدا...

– ربّما... لكنها غلطة...

كنت أنظر إليك والدمّوع تملا عينيّ...

وكنت تنظرين إليّ كما لو كنت حملا ثقيلا عليك...

أذكر أنني قلت لك آنذاك في صوت حزين:

- باربارا...

-...

- هل نسيت تلك الضحكات التي ضكحناها ونحن نتناول الطّعام على الطريقة اليابانية في مطعم (التّنّين الأحمر)؟ ...

- نسيت...

- أنا أتذكر كلّ شيء يا عزيزتي...

حتى ذلك الشاب الذي لم يكن يحذق الطريقة اليابانية...

لقد ضحكنا منه كثيرا... وضحك بدوره منا كثيرا... لأننا لم نحسن مسك العودين بيد واحدة...

لقد ضحكنا كثيرا... أليس كذلك؟

- ...

وران بيننا صمت ثقيل...

ناديتك آنذاك بصوت حزين:

- باربارا...

- ماذا أيضا؟

- هل تذكرين؟

عندما كنت أضع يدي الباردة في يدك الدّافئة...

- ...

– كنت أشعر بالسعادة العارمة تغمر قلبي...

– ...

– شعرت آنذاك... أن عيون المارة تكاد تحرقني... وتنزع عن قلبي السعادة والدفء ...

– أنهم يتساءلون ولا شك قائلين:

– "كيف تسمح لنفسك بربط علاقة مع امرأة مثلي... وأنت لم تتجاوز عتبة المراهقة...".

– لا يهمني كلام النّاس... أنا أحبّك وكفى...

– لكن... لماذا لا تحب فتاة من سنّك... لماذا؟ ...

– شيء أقوى مني...

وحتى وإن حدث ذلك فسوف لن أفعل! ...

***

ومرّة أخرى... ران بيننا الصّمت الحزين...

ونظرت في عينيك طويلا وقلت:

– لو كنت رجلا... لفهمت جيّدا حقيقة نواياهم...

– لم افهم... ماذا تقصد؟

– أنا أفهمهم جيّدا... إنهم يقولون: " يا له من محظوظ..."

– لماذا؟ ...

– لأنني تعرّفت وأحببت امرأة رائعة مثلك! ...

ورأيتك تلوذين بالصمت من جديد... فقلت لك:

– أما زلت تذكرين تلك الجلسة الحلوة على ضفاف بحيرة البلفدير؟

كانت جلسة ممتعة ولكنّها مؤلمة...

– ولماذا يا ترى؟ ...

– قلت لي آنذاك:

– " خسارة... أنت ما تزال طفلا...

أنت ماتزال تلميذا...

أنت لا تعرف ماذا تريد؟ ...

انتظر وحاول ربط علاقة مع فتاة من سنّك..."

فآه... لو تعلمين يا عزيزتي...

مدى الحزن الأسود الذي ألمّ بقلبي طيلة أيام البعاد...

لو تعلمين فضاعة القلق الذي عشته في وحدتي القاسية...

لقد شعرت أنني أحيا حلما مدمّرا...

أحسست أنني أسير في طريق بلا غدّ...

– باربارا يا حبيبتي... أرجوك... دعيني أحبّك كما أشاء...

– أنا على يقين من أنّك ستندم يوما...

– ما زلت أتذكر جيدا كيف التقينا صدفة أوّل مرّة

كان مساء ممطرا...

وكنا وحيدين في حديقة المتحف...

– لم أعد أذكر شيئا من هذا...

– أخبريني إذن... عن السّبب الذي جعلك تلتفتين إليّ عندما سرت وراءك في الحديقة...

... مع أني لم أترك لخطواتي فرصة إحداث أي صوت...

آه... قولي... بماذا تفسرين ذلك؟ ...

– لا أعرف... لا أعرف وكفاك أوهاما...

– ألا تعتقدين أنّك استمعت إلى دقات قلبي؟ ...

– أريد أن أقول لك شيئا...

– ماذا يا عزيزتي؟ ...

– يبدو أن نهاية علاقتنا اقتربت وأننا سنفترق حتما... آسفة...

لست أدري لماذا لم أقل شيئا آنذاك؟ ...

ربّما لأنك أضفت قائلة:

– انتهى كلّ شيء بيننا...

– هكذا؟ بكل بساطة! ...

– آسفة يا صغيري...

عليك أن نبدأ حياة جديدة خالية من كل ذكرياتنا القديمة...

وبذلك... أستطيع أنا... مواصلة حياتي الرتيبة التي بدأتها منذ أكثر من عشرين سنة...

– هكذا إذن...

فقلت لي كأن شيئا لم يكن:

– هل اتفقنا؟ ...

قل لي بأنّك سوف لن تعود إلى مثل هذه الأشياء...

– ...

في تلك اللحظة... عصفت الريح...

عصفت بقوة عنيفة... وأخذت تصفعنا في جنون وقسوة...

وأحسست وأنا أضع رأسي على صدرك الدّافئ...

بخصلات شعرك المتهدل... تداعب وجهي كما لو أنّها تقول لي:

– "حرام أن نفترق..."

ورأيتك تبتسمين لي في حبّ...

وكما لو كنت في حلم...

وضعت شفتيك على جبيني وقلت:

– ثق بأنني أحبّك كثيرا...

– سأبقى أتذكر جولاتنا في كل الأمكنة...

– دائما؟...

– إلى الأبد... حتى وأن أخذت في النّهاية شكل السّراب...

– إنّ النسيان آفة المخلوقات جميعا...

– لن أنساك أبدا...

وسوف تبقين منبع أحزاني وأفراحي على مرّ الأيام...

وسأتذكر باستمرار... كل ما عشناه بكل التفاصيل...

وكيف كنت تضمينني إلى صدرك...

وكيف أضع وجهي على وجهك...

وكيف أشدّ على يدك بكلّ قواي وأنا أتجول معك بكل اعتزاز في شوارع المدينة...

– حسنا... حسنا... لكن لا تنس ما اتفقنا عليه...

غدا ستعود إلى حياتك الجديدة...

وسأعود أنا إلى حياتي...

– حياتي الجديدة؟ دعيني أضحك...

– عالم كامل يفتح أبوابه في وجهك... أنا واثقة من ذلك...

قلت لي كل هذا... فقلت لك في يأس:

– ربّما...

لكن أرجوك...

تذكري جيدا موعد فراقنا...

***

ولمّا كان الغد...

كنت في انتظارك على رصيف المحطّة...

– فلماذا لم تأتِي؟

صدّقيني إذا قلت لك يا عزيزتي...

إنني انتظرتك طويلا...

بقيت واقفا على الرصيف أكثر من ساعة...

عندما تحرك القطار الأوّل... تركته يذهب... وأنا أنظر إليه في ذهول...

وأتساءل:

– يا إلهي... لماذا لم تأتِ؟...

شعرت بالفراغ الأسود يملأني...

وبالعجز القاتل يضغط على مفاصلي وأعصابي...

وتحركت رجلاي على الرصيف القفر... في خطوات متثاقلة...

ومن خلال غشاوتي سمعتك تقولين في صوت حزين:

– هيا... تعال يا صغيري... هذا القطار الثاني قد أتى...

وتناهى إليّ الصّفير المزعج... وهذا قطار الفراق قد حلّ...
مازلت أذكر كيف أنّك صاحبتني حتى العربة...
وكيف أنك بقيت واقفة على رصيف الألم... تلوّحين لي بمنديل الوداع...
بينما بقيت أنا خلف زجاج النافذة الشاحب... أنظر إليك في مرارة...
كلماتك الأخيرة مازالت ترنّ في أذنيّ:
– " ساعدني على أن أبقى هادئة المزاج يا صغيري الحبيب...
أعرف أن هذا غير ممكن...
لكن حاول عدم النظر إليّ عندما ابتعد عنك...
أنا سأذهب الآن...
وسأبتعد عنك قبل أن يبتعد بك القطار...
فحاول أن تتذكرني...
كما لو كنت شبحا مضى على حياتك...".
مازلت أتذكر كيف أنّك نظرت إليّ نظراتك الأخيرة المليئة بالدّموع...
وكيف ابتعدت عني بلا وداع...
ولم تلمس يداك يديّ اللّمسة الأخيرة...

كنت يا عزيزتي...

كسماء ليل كبيرة تبحث عن فضاء أرحب...

بينما كنت أنا...

كالفجر الشاحب يبحث عن شعاع!

الخيال والصورة

- " عزيزتي...

قالها... رغم كل أشواك اللقاء الأخير...

رغم القرار القاسي الذي اتخذته...

لم يعرف كيف بقي مشدوها أمامها ولم ينبس ببنت شفة؟...

إنّه يتذكر...

ويحترق الآن من شدّة ما انتابه من الحزن والألم واليأس...

ويتذكّر ما قاله لها ذات لقاء دافئ:

- أخاف أن أفقدك يوما... لأني أحس أنني إنسان بلا حظّ...

تذكر أنّها غضبت آنذاك... وحاولت التخفيف من يأسه... وابتسمت له...

لكن... ها هي الصدمة تحدث فعلا نتيجة لقرارها القاسي في عدم اللّقاء به مستقبلا...

دون أن يشعر...

أدخل يده في جيب سترته وأخرج صورتها ليلتقي بوجهها الصبوح الباسم... وتساءل:

– وأنا؟ هل أقدر أن لا أقابلك من جديد يا حياتي؟ ...

تخيل أنّها فهمت سؤاله...

لكنها اكتفت بالصمت والنظر في عمق عينيه طويلا...

ولم تقل شيئا...

فعاد يسألها...

– هل تحبينني؟ ...

وقرأ ما كتبته بخط يدها أسفل الصورة:

– " سأحبّك دائما" – زيّا–

فأحس بالدفء يسري في عروقه...

وعاوده الحنين إلى صوتها العذب...

فقال كأنّه يسألها...

– " ما دمت تحبينني... لماذا إذن لا ترغبين في مقابلتي؟ ... ".

نظر إلى اللا شيء وقال في حلم:

– "ماذا سيقول عني الآخرون... أولئك الذين حسدوني في حبك؟" ...

وتساءل عمّ سيفعله؟ ...

ومع من سيخرج كل مساء؟ ...

وإلى أين سيذهب وحده؟ ...

وتمنى مرة أخرى لو تعيش يوما ألامه حتى تعرف مدى حبّه لها...

***

وقرر الخروج كل مساء وحيدا... وحيدا إلا من خيالها وذكراها...

قرر أن يقف أمام صورتها كما لو كانت ماثلة أمامه حقيقة...

ليقول لها أعذب الكلمات...

قرر أن لا ينساها أبدا...

وستبقى صورتها الكبيرة معلقة على جدار غرفته إلى الأبد...

حتى يراها جميع أصدقائه وصديقاته...

وتحسس وجنته... فإذا به يبكي في صمت...

همس يحدث نفسه:

– " غدا في الساعة الخامسة والربع مساء...

سأنتظرك كالعادة قرب قوس – باب البحر– .

سأقف طويلا وسط أشباح المارة ليخفق قلبي مع كل حافلة أو سيّارة أجرة تقف أمامي...

حتى إذا ما يئست من قدومك سرت معك في خيالي إلى ركننا الدافئ في مقهى باريس...

سيأتي النادل وسأطلب قهوة أو أي شيء لا يهم...

وسأطلب لك عصير برتقال بلا سكر كما كنت تطلبين يا عزيزتي...

سوف لن أشتري طوق الياسمين ولا صحيفة – *فرنسا المسائية* – كالعادة...

وسيبقى مكانك شاغرا باردا حزينا إلا من خيالك الرائع يؤنس وحدتي...

ويدي تشد على يدك كما لو كنت معي حقيقة...

***

مع الساعة الثامنة...

سأغادر المقهى في تثاقل لأعود راجلا حتى – باب سويقة– كما كنّا نفعل يا عزيزتي...

أقف معك قليلا لأودعك عبر الزقاق الضيق ولألقي نظرة أخيرة على باب منزلكم...

ثمّ أتوجه وحيدا نحو المحطّة لأمتطي الحافلة أو سيّارة أجرة وأعود إلى بيتي...

فأدخل غرفتي وأختلي بصورتك في حب وحزن... "

***

وفتح عينيه...

فإذا به أمام صورتها فعلا...

مد يديه، أخذها... ضمّها إلى صدره بكل قواه...

في تلك اللحظة نادته أمّه للعشاء...

لكنه ابتسم... قبّلها ثانية واستلقى على فراشه...

فأحس بسعادة سحرية تسري في عروقه...

ثمّ أغمض عينيه حتى تبقى صورتها ماثلة أمامه ولا يغادره خيالها الرّائع...

الأغنية الحزينة

– سميرة... أنت تبكين؟ ماذا حدث؟ ...

– لا شيء... دعيني...

– أخبريني... ما الذي يبكيك؟ ...

– مصيبة... آه لو تعرفين...

– أعرف ماذا... أخبريني... أنا لم أفهم شيئا...

– لقد... هجرني سامي... هجرني ليذهب مع فتاة أخرى...

– كيف؟ من قال لك هذا؟ ...

– يا إلهي... يا إلهي...

قالت ذلك... ووضعت وجهها بين كفّيها وأجهشت بالبكاء...

– عزيزتي... لا تبكي هكذا... إنّ شخصا مثله لا يستحق منك كلّ هذه الآهات وهذه الدموع...

رفعت معنوياتها بذلك... وتركتها تبكي على صدري...

لم تكن أختي الوحيدة في مثل هذه الخيبات...

فحتى صديقتي سلوى تعيش منذ زمن على الألم والدّموع...

فقد قالت لي وكنا نتجوّل في حديقة البلفدير هنا وفي هذا المكان التقينا أوّل مرّة...

وعلى ذلك المقعد جلسنا وتحاببنا...

آه... يا نجوى من غدر الرجال...

- بصراحة... أنا أعرفهم جيّدا... معظمهم أوغاد...

- لتحفظك الأيام من مثل هذه الخيبات المؤلمة على كل حال...

فضغطت على يد سلوى وقلت أطمئنها:

- هذا لن يحدث بيني وبين نبيل أبدا...

- إن الغدر من شيم الرجال يا نجوى...

- الغدر من شيم الإنسان بصفة عامة...

لكنني واثقة من أن صديقي يحبني كثيرا...

- كيف عرفت ذلك؟ ...

- لقد صرّح لي بحبّه منذ السنة الأولى...

ومازلت أتذكر كلماته إلى الآن...

لقد همس في أذني آنذاك وقال لي في دفء:

- " أنت صديقتي الرائعة جدّا...

وأنا أحبّك جدّا... جدّا..."

كما أذكر أنني قلت له في شبه همس أيضا:

– " وأنت ستبقى صديقي الأوحد...

فلا تنس هذا!".

كان نبيل يحب الأغاني كثيرا...

وكنت حين أذهب معه إلى المرقص أضع رأسي على صدره الدافئ وأردّد في عشق لحن أغنية عاطفية لعبد الحليم...

فيأخذ نبيل وجهي بين يديه وينظر في عمق عيني طويلا ويقول لي:

– متى سأراك تغنين لي وحدي؟

– أنا أغني لك وحدك...

– أنت تعرفين جيّدا ما أقصد...

– أعوام قليلة وسأكون لك وحدك يا حبيبي...

شريطة... أن تكون لي وحدي أنت أيضا! ...

– آه لو تتصورين كم أنا أحبّك يا عزيزتي! ...

***

عندما يحادثني نبيل هكذا...

يذوب قلبي حبّا وتنقشع عن نفسي سحب القلق الرمادية...

فأرفع إليه رأسي وأقول له راجية:

– أعد على مسمعي ما كنت تقوله لي...

أنك تحسن الغزل مثل الشعراء...

فينظر في عمق عيني كعادته...

ثمّ يهوي على شفتيّ يقبّلهما في حرقة ولهفة...

فلا أستطيع نزعهما...

ويعود بعد ذلك ليهمس في أذني بكلماته اللاهثة عشقا:

– أحبّك يا حبيبتي أحبّك... فهل تفهمين؟ ...

أعرف أنني أعيد عليك نفس الكلمات... لكن...

أحبّك يا عزيزتي أحبّك... فهل تسمعين؟ ...

ماذا أقول؟ أنا في حاجة لكي أعبّر أكثر...

أعبّر أحسن...

أشعر جيدا بما أريد أن أقوله...

وأحيا داخل كلماتي...

لكني في حاجة إلى كلمات أخرى...

آه لو تعلمين يا حبيبتي الصغيرة...

كلّ ما يجري فيّ من حبّ...

آه لو أجد يوما كلام الشعراء...

سأقول فيك المحال...

وسألمسك هكذا... هكذا...

ومائة وألف مرة سأقول لك وسأعيد: أحبّك يا صغيرتي... أحبّك...

***

قلت لحبيبي كما لو كنت في دوّامة ملوّنة:

– نبيل أنظر... أننا نكوّن ظلا واحدا... هذا رائع... أليس كذلك؟ ...

– فعلا يا عزيزتي... شيء رائع! ...

وعندما تحين ساعة الفراق...

ويطوّقني بذراعيه في حنان...

كنا نتبادل النظرات الطّوال والقبل الجنونية...

وحين ينصرف...

أشعر وكأنّ يده لا تزال تشدّ على يدي في دفء لا مثيل له...

وأنفاسه الحارة تلهب وجهي وعنقي...

ورغم كل ذلك...

لم أكن لأتصور أن ما حدث لأختي سميرة مع صديقها...

يمكن أن يحدث لي أيضا في يوم من الأيام...

وتذكرت ما قالته لي أختي في حرقة من خلال دموعها وقتئذ:

– " الحبّ... ريح من الجنون يا عزيزتي...

لا نعرف كيف ولا من أين يأتي ولماذا يذهب؟"

وتراءى لي في الأفق البعيد وجه أختي المبلّل بالدموع...

وتناهى إليّ صوتها المتقطع الأليم:

– " ماذا تفعلين لو يتركك نبيل؟ ...

أو تظنين أنّه في استطاعتك نسيانه بسهولة؟ ...

خصوصا عندما تكتشفين في مرارة – المرأة – التي أخذت مكانك في قلب من تحبّين؟!"

ولم أتكلّم...

فقد أحسست أن بردا قاسيا سكن ظهري...

كنت أظنّ أنني أعرف حبيبي أكثر من معرفتي لدقات قلبي...

ولكن ما لاحظته في تلك الليلة بمرقص (مون سينيور)...

جعلني أعدّل نظرتي للأشياء...

ففي المرة الأولى التي رأى فيها نبيل راقصة الملهى الجديدة أحسست في داخلي بأنّ أشياء في صديقي قد تغيرت...

فتملّكني خوف كبير... دفعني إلى أخذه من يده...

لكنني شعرت وكأنني ألمس خيالا لا روح فيه...

لم أكن أشكّ في أنّها كانت تغني من أجله...

إنّها تؤسره...

وأردت أن أصيح...

أن أبكي...

أن أذهب بحبيبي إلى بعيد...

إلاّ أنني اكتفيت بوضع رأسي على صدره...

بينما ترقرقت تحت أهدابي دموع حارة...

فقلت له هامسة:

– " لا تسمعها يا حبيبي... لا تسمعها..."

ومن ذلك اليوم....

اعتدت الذهاب مع نبيل كل مساء إلى ملهى (مون سينيور) للرقص والاستمتاع بالأغاني الجديدة... لكنّني كنت بالمرصاد... فلم يحاولا الاقتراب من بعضهما...

ولا حتى تبادل بعض الكلمات العابرة...

ولكن أمامي عينيّ الحائرتين... أحسست في مرارة أنّهما يعيشان قصّة حبّ عنيفة...

لهيبها النظرات والابتسامات الخفية...

***

وذات مساء...

اقترح أحد الحاضرين الذين غصّت بهم قاعة الملهى... على الراقصات أن يشرفن أحباء الملهى برقصة تبقى أحسن هديّة يقدّمها (المحل) لروّاده الأوفياء...

فجاءت الراقصة اللّعوب لتحلّ محلّي بين ذراعي نبيل...

ورأيته كيف طوّقها بذراعيه كأنّه مسحور...

فانقبض قلبي أكثر من أيّ وقت آخر...

– إنّهما يرقصان كما لو كانا وحيدين في غرفة مظلمة...

وأحسست بأشواك الخيبة تنغرس في أعماقي...

ولم أعرف كيف خرجت من الملهى مكسورة الجناح كما لو كان شيطان يطاردني...

– لا أقدر أن أتحمل أكثر...

وأخذت أسير كالشبح الأعمى عبر شوارعِ المدينة الصامتة كالمقبرة...

– كنت يا نبيل... تملأ كلّ فراغ قلبي... كنت نبيلا...

أمّا الآن فأنت تخونني...

تحطم قلبي وآمالي وحبّي...

اذهب بلا رجعة حتى لا تأتي في المستقبل تقبّل قدميّ وقد لفظتك راقصة ملهى على قارعة الطريق...

ورجعت إلى البيت حزينة باكية...

وعندما رنّ جرس الهاتف... ترددت قليلا قبل أن أرفع السماعة...

وأخيرا رفعتها بيد مضطربة... وتناهى إليّ صوته المخادع...

– آلو... نجوى ؟

– اذهب إلى حيث يناديك قلبك...

ولا يهمك المكان أو الشخص الذي أنت ذاهب إليه...

وقبل أن ينطق نبيل بحرف... وضعت السماعة في مكانها وهمست:

– "سأكون حبيبتك حتى حين تنساني... وسأبقى أحبّك ! ..."

***

ولم أكن في حاجة إلى أخبار أختي بما وقع...

فقد علمت بكل شيء...

وعندما ارتميت أبكي على صدرها... قالت لي:

– الحبّ ريح من الجنون يا نجوى...

لا نعرف كيف ولا من أين يجيء...

ولماذا يذهب؟ ...

***

ومن ذلك الحين...

لم أعرف لماذا أحيا...

وهل أنا حقيقة على قيد الحياة ؟ ...

ذلك لأن جميع النور غاب عن حياتي بعد ذهاب نبيل...

لست أدري...

ماذا أقول عن الأمر الخفيّ الذي دفعني ذات مساء إلى الرجوعِ لمرقص (مون سينيور) أين تحطّم قلبي وحبّي ! ...

ربّما أراد قلبي آنذاك أن يستلّ آخر شعاع من حبّي الضائع... من يدري؟ ...

وجلست وحيدة إلاّ من همومي أمام منضدة صغيرة في ركن بعيد من المرقص... فجأة...

شعرت بالراقصة ترمقني بنظرة غريبة...

وحين التقت عيوننا جيّدا...

ابتسمت لي في عطف واتجهت نحوي مردّدة لحن أغنية حزينة...

رفعت يدي في لطف...

وسارت بي نحو ركن شبه مظلم حيث كان يجلس نبيل...

وقفت بيننا... وابتسمت في وجهينا...

ثمّ جمعت أيدينا في لمسة سحرية لا توصف...

وولت راجعة نحو الخشبة...

نظر نبيل في عمق عيني طويلا... وران الصّمت برهة...

فقرأت في عينيه سؤالا طالما فكرت فيه:

– هل لنا الحق في أن نحيا في سعادة ؟ ...

وكان الجواب عندما تناهى إلينا صوت الراقصة المنساب في الأعماق كالسحر:

– " الحبّ سفير الآلهة...

وزهور الحياة آخر أمانينا...

فلا تكن منبع القلق...

الزهور ستتفتح في حديقتك....

وستبتسم لك أكثر من يوم واحد...

فلا تطرحها قبل الذبول...

لا تطرحها قبل الذبول..."

ولمّا انتهت الأغنية.... وخبا النغم الحزين...

رأينا الراقصة... فإذا هي تبكي في حرقة وتبتسم لنا في حبّ.

بقايا صور

إنني أتساءل... كيف تنتهي أحلام الحب بسرعة... ولماذا؟ ...

لم أصدق ذلك أبدا...

حتى عندما حذّرني بعضهم منذ البداية...

كان ذلك في صيف عام مضى...

تركت المدينة الصاخبة... وتحولت في لذّة عارمة إلى الواحة... حيث تقطن خالتي...

لقد أحببت الواحة كثيرا... الهضاب... والغدران... وكل النخيل...

كان يكفي أن أفتح عيني على ذلك كل صباح... حتى أشعر في قرارة نفسي بالنشوة تدغدغ عروقي الحالمة...

ولقد شعرت آنذاك بحدس غريب يخامر ذهني... لم أفهم كنهه إلا في النهاية...

– أشعر... أنني سأقضي صيف أحلام كله دفء وحبّ!؟

– أنا أوافقك على طول الخط! ...

التفتّ صوب الصوت...

فإذا به يقف على بعد خطوات مني... وعلى شفتيه ابتسامة... وقتها فقط تفطنت إلى أنني كنت أتكلم بصوت مرتفع...

الشيء الذي جعل الشاب يلتقط كلماتي بسهولة...

نظرت إليه باسمة وتركته يواصل كلامه:

– عرفت ذلك... منذ أن رأيتك نازلة من السيارة يوم أول أمس.

– إنّك بحكمك... تعارض القدر ألا ترى هذا؟

– لا أظنّ... فالزمن قصير... يجب أن لا ننسى هذه الحقيقة المؤلمة...

سكت قليلا... ثمّ نظر إلي وقال بسرعة كأنه نسي شيئا:

– معذرة... لم أقدم لك نفسي أدعى أحمد سالم... وأغتنم هذه الفرصة لأرحب بك في واحتنا...

– شكرا... أنا أدعى... سعيدة...

– اسم جميل...

وابتسمت له بدون أن أشعر...

لقد كان أحمد... يحسن فعلا غزل الكلمات بصورة مدهشة...

قال لي بعد أن نظر فيّ مليا:

– ما رأيك في جولة تحت الظلال؟

– الظلال! لماذا؟ لقد جئت هنا من أجل الشمس... إنني أريد أن أصبح سمراء...

– مثلي... هكذا؟ ...

– لماذا تتعجب؟ ...

– لا شيء... ولكني أخاف إن أنا تجولت معك تحت الشمس... أن تزيد الشمس فتحرق بشرتي السمراء أكثر...

قال ذلك وابتسم لي في... وداعة...

لست أدري كيف... وبأية سرعة دار بيننا هذا الحوار...

ولم أدر كيف سمحت له بالحديث والابتسام أمامي...

ربما لأنّه استمع إلى دقات قلبي...

ربما لأنني لم استطع إخماد دقات قلبي عندما رأيته! ...

– من كان يظن أنني سأعيش مع أحمد بهجة الصيف تحت ظلال... خضراء...

نظر في عمق عيني طويلا ثم انساب صوته كخرير ماء ينسكب من فوق:

– من أول نظرة... شعرت أن القدر سيجمعنا في قلب أغنية واحدة. ألا ترين هذا؟ ...

– لا أعرف... في هذا الوقت أشعر أنني أرى شيئا كبيرا...

– وما هو هذا الشيء... الكبير؟ ...

– لا أقول...

– ربما... تقصدين... الحبّ...

– ربّما...

– إذا كان الأمر هكذا... فإنّ هذا الصيف سيكون أجمل صيف في حياتي...

رفعت إليه بصري فإذا به ينظر إلى اللا شيء... وقلت:

– حب الصيف... هو أكثر أنواع الحب اشتعالا...

ولكن يقال أنّ ناره الملتهبة لا تلبث أن تخمد في النهاية... وتصبح رمادا حزينا...

التفت نحوي وقال من خلال ابتسامته:

– ما دمنا نفهم معا هذه الحقيقة فأنا واثق من أن القدر سوف لن يخبئ لنا رمادا...

قال ذلك وترك في صمت أصابعه المعروقة السمراء تشد في رفق على أصابعي...

لست أدري لماذا فكّرت في أول الأمر نزعها...

ولكن سرعان ما تركتها مطمئنة حين قبلت نظراتي ابتسامته الساحرة... في خجل ودفء...

ابتسمت... فالتفت نحوي يسألني:

– لماذا تبتسمين؟

– أني أتساءل...

– تتساءلين؟

– نعم... أتساءل... كيف وبأية سرعة أصبحنا صديقين ؟ ...

فكّر قليلا... ثمّ قال:

– الصداقة الحقيقية المبينة على الحب العفوي... لا تحتاج إلى زمن ولا إلى مقدمات...

أعجبتني كلماته المفعمة إيمانا فقلت:

– سيكون هذا الصيف خالدا في دنيا وجودي لا يعادله ربيع...

– أنا واثق من هذا...

***

ومضت الأيام جميلة ورديّة دافئة...

عشنا لحظاتها كما لو كنّا في الجنّة...

وصنعنا من كل الظلال والأضواء والزهور أوكارا ملأناها همسات ووعودا وقبلات...

وذات يوم عدت كالعادة إلى منزل خالتي مع الغروب بعدما ودعت أحمد في نهاية المسلك قرب الساقية على أمل اللقاء به بعد العشاء في نفس المكان...

رغم السعادة التي كانت تسربل قلبي...

شعرت وأنا أدخل منزل خالتي كما لو كنت وسط عالم من المفاجآت والأشباح...

وفعلا...

شعرت عندما قالت لي خالتي:

– أنا آسفة يا عزيزتي أن تكون هذه آخر ليلة معنا... لقد طلبت من أبيك أن يمدد مدّة إقامتك لكنه رفض لست أدري لماذا ؟ ...

وشعرت برغبة قوية تدفعني إلى البكاء...

ولكنني حبست دموعي تحت أهدابي واكتفيت بأن همست في حزن:

– لقد قال لي: " الزمن قصير يجب أن لا ننسى هذه الحقيقة "...

فعلا الزمن قصير جدا...

إن هذا الصيف سيبقى خالدا في سماء قلبي...

وأجمل صور ذكرياتي إلى الأبد...

والتقينا بعد العشاء في نهاية المسلك القفر قرب الساقية...

كانت السماء مقمرة...

والليلة هادئة...

ونسيم خفيف يهب من حين لآخر...

فيبعث في جسمي قشعريرة غريبة...

قلت في حزن:

– أحمد...

– نعم يا عزيزتي...

– هذه هي آخر ليلة نلتقي فيها...

–...

ولم يسألني لماذا؟ ...

ولم أر على وجهه ما يدل على التألم والأسى على الفراق الحزين...

بعد كل الذي حدث بيننا...

واكتفى بأن ابتسم في وجهي هامسا:

– يجب أن تترك لنا هذه الليلة الأخيرة يا عزيزتي ذكرى خاصة تختلف عن بقية الذكريات التي عشناها...

قال ذلك وضمني إلى صدره في حبّ ثم قبّل شفتي في شهوة وجنون...

ولما نظر إلى وجهي سألني:

– عزيزتي... أنت تبكين لماذا؟ ...

ولم أقل شيئا...

وواصلت البكاء في صمت...

فعاد يسألني وأصابعه المعروقة السمراء تداعب خصلاتي شعري:

– أخبريني يا عزيزتي: لماذا تبكين؟ ...

نظرت إليه من خلال دموعي وقلت له كطفلة صغيرة:

- لا تتركني أذهب...

دعني أبقى بجانبك إلى الأبد...

فاكتفى بمداعبة خصلاتي في صمت غريب وقسوة باردة...

***

وتحققت في النهاية من النوايا الحقيقية لأحمد...

خصوصا عندما قال لي وكأن شيئا لم يكن:

- لنقل إذن لحب الصيف وادعا...

ولنواجه معا الحقيقة في شجاعة...

ومن يدري لعل القدر يجمعنا في صيف قادم آخر...

أنا أومن بأن القدر يصنع المعجزات وأنت؟ ...

***

وعندما لم أقل شيئا...

التفت نحوي...

فإذا بالدموع ما تزال تنحدر في حزن وحرقة على وجنتيّ الملتهبتين...

- (ربما يجمعنا القدر في صيف قادم آخر...) يا لدناءة الرّجال...

لم أكن بالنسبة إليه سوى ملهاة من ملاهي الصيف...

لقد حاولت في أول الأمر تصور الصدمة عارية من كل تظليل وغطاء...

لكن لست أدري ما الذي منعني آنذاك من ذلك...

وهكذا تركت نفسي في شيء من اللاوعي انساب مع التيار المعطر... الذي أوصلني إلى هذه النهاية الرمادية من الحزن والآلام والذكرى.

نظرت إليه للمرة الأخيرة وقلت في يأس:

– إن كل هذه الأشياء التي نسيتها بسرعة مدهشة...

سوف أبقى أتذكرها مدى حياتي...

***

ولم يستطع أن يقول شيئا...

لم يستطع حتى الدفاع عن نفسه...

واكتفى بأن بقي في مكانه...

يتبعني بنظراته... وأنا أبتعد عنه...

***

وكان الفراق! ...

رغم البعاد... ومحاولة نسياني لكل الأشياء...

بقي الجرح الذي أصاب قلبي داميا...

– لن أستطيع نزع الذكريات من حياتي...

***

مضى الصيف...

وبدأت الأشجار تسقط أوراقها شيئا فشيئا...

فأحسســت في أعمــاقي أن خريفــا حزينــا يقــف في انتظــاري... مــبلّلا بالدموع...

– يا إلهي... كيف سأتحمل هذه الحياة الأليمة... بعد كل الذي حدث؟

***

ومضت الأيام... إلى أن حلّ الشتّاء...

أحسست في هذا الفصل الحزين...

أن قلبي أصبح كصفحة قبر مرمرية باردة...

وأن هذه القطرات الشتائية النازلة عليها...

تحاول دون جدوى إطفاء النار وتحطيم الذكرى...

فلتمطر السماء على قلبي دائما وبلا نهاية...

حتى تنطفئ النار التي تعذبني بلا رحمة...

لم يعد يهمني أي شيء...

ما دمت قد فقدته إلى الأبد!

المنعرج الورديّ

من كان يظنّ أن الحبّ سيغيّر مجرى حياة نادية بهذه الكيفيّة؟

نادية نفسها تعجبت من نفسها...

خصوصا عندما التقت بمحمود أوّل مرّة...

أوّل الأمر تعجبت من وجوده في ذلك الجوّ...

شاب غارق في الكتابة وسط مهرجان للجاز؟ ...

– مسكين يبدو أنّه شاعر...

واعتراها فضول كبير لمعرفة حكايته وسبب اختياره هذا الجّو الصاخب للكتابة

وعبر ذهولها...

تذكرتْ (الحمامات) الرائعة... واللّيالي الصّاخبة... والنادي... والمرقص الذي دأبت على ارتياده باستمرار... للتمتع صحبة أصدقائها بالضحك والرقص والموسيقى و...

تذكرت كلّ شيء... حتى تلك اللحظة التي جمعتها بمحمود...

كان ذلك في مهرجان الموسيقى الغربية الأخير...

وكانت قاعة الحفل الفسيحة مكتظة بهواة الرقص من الشباب...

مرّة أخرى... قرّرت نادية شرب كأسها حتى الثمالة... لإيمانها بأن الحياة لا تأتي إلاّ مرة واحدة ...

وما على الإنسان الذكي إلاّ أن يحياها بالطول والعرض حتى لا يندم عندما يمرّ قطار العمر وتسرقه أيام الحياة...

كانت تقول دائما لكلّ من يلومها على لهوها الدّائم:

– أنا واثقة من أن الحياة فرصة عابرة لا تعوّض...

على الإنسان العاقل استغلالها حتى الرمق الأخير...

وليكن بعد ذلك الطوفان...

تقول ذلك... وتضحك بملء جوارحها... ضحكات باتت تزرع في عروقها نشوة بلا حدود...

لما دخل محمود ذلك الملهى... لم تمنع نفسها من الالتفات إليه... والنظر فيه مليا نظرات الإعجاب والتقدير و... الحب! ...

قبل أن تتوجه إليه وتكلمه... تساءلت عن سبب إعجابها به...

" رجل أنيق جالس لوحده بعيدا عن الجمهور الصّاخب ينظر... يلاحظ... ثمّ يكتب..."

– يبدو أنه صحافيّ... أو شاعر... ربّما...

نظـرت إليـه ثانيـة في شـيء مـن الفضـول... فـأرادت أن تتعـرف عليـه أكثر... حتى تعرف قصّته...

– "هذا الرجل الغريب الوحيد الذي يكتب! ..."

وراقت لها الفكرة...

تقدّمت نحو صديق تعرفه وقالت تسأله وهي تشير بعينيها إلى محمود...

– انظر ذلك المسكين الجالس في الزاوية...

– ما به؟

–هل رأيت ما يفعل؟

– أظنّ أنه يقرأ... أو يكتب... لا أعرف...

– وهل هذا مكان للقراءة...

– أهل العقول في راحة...

– يبدو أنه غريب عن هذه الأجواء...

– بل قولي تجاوزه الزمن بأشواط...

– يبدو أنه شاعر....

– اذهبي إليه... لعلّه يكتب فيك قصيدة في الغزل...

قال ذلك وضحك في سخرية... بينما أضافت نادية قائلة:

– لن يمضي وقت طويل حتى أعرف الحقيقة...

وسارت تشق طريقها وسط الجماهير الصّاخبة متجهة نحو منضدة الشاب الوحيد...

وقفت قبل الوصول إليه على بعد خطوات منه...

وحاولت أن تهدئ من هذا الارتباك الذي فاجأها...

– كيف يحدث هذا معي؟ ...

أنا المتعوّدة على الاختلاط بالجنس الآخر أكثر من أي فتاة أخرى؟ ...

كيف عدت فجأة إلى سنوات المراهقة الأولى...

كما لو كنت تلميذة مرحلة أولى ؟ ...

أحستْ بذلك...

لكنّها قرّرت مواصلة اللعبة فتقدّمت منه بخطى مترددة...

لما وصلت قربه ووقفت أمامه... شعرت بأن حيرتها قد ازدادت...

فلم تعرف كيف تبدأ معه الحديث...

وتفطّن الشاب لوقوفها أمامه...

فرفع إليها بصره وابتسم لها...

فأحسّت نادية بارتياح يسري في جسدها كتيار سحريّ جارف...

أنساها ارتباكها...

فابتسمت له وقالت في دلال:

– أرجو المعذرة... إن أنا عكرت عليك صفو وحدتك...

– العفو... تفضلي...

نظرت في عمق عينيه طويلا ثمّ حوّلت بصرها إلى أوراقه وقالت تسأله:

– أنت كاتب؟ ...

– ربّما... لكن ليس بالمعنى المتعارف...

– يعني؟ ...

قالت ذلك... وابتسمت ثانية في خجل...

وبدأت تداعب بأصابعها أزرار فستانها الجميل...

صمت الشاب لحظة ثمّ نظر إلى وجهها الساحر متعجبا وقال كأنه يسألها:

– يعني ماذا؟ ...

– أقصد... ألا يقلقك هذا الجوّ الصّاخب؟ ...

– لو لم يكن صاخبا... لما أتيت...

– إذن لماذا لا ترقص؟

ضحك وقد أعجبه سؤالها وأجاب:

– لأنني أتيت من أجل شيء آخر...

– أحسن الرقص؟ ...

– لم أقل هذا... ثمّ أنني لا أحسن الرقص...

– أنت متفقد إذن؟

– لوْلا براءتك لقلت أنك من الاستعلامات...

اطمئني يا آنستي... أنا فقط باحث بصدد إعداد دراسة (حول الشباب والحياة النفسية) أتطرّق فيه إلى (جنون المراهقة)...

(وكيف يمكن للشاب أن يعيش مراهقته بلا مشاكل نفسية؟) ...

(ولماذا ينحرف البعض من أبنائنا في سن المراهقة ؟)...

(ودور الأسرة في إمكانية منع انحراف أبنائها)...

إلى غير ذلك من المشاكل...

هل فهمت الآن لماذا جئت إلى هذا المكان يا...

نظرت إليه وكأنها لم تع من كلماته شيئا وقالت:

– أنا أسمي نادية... وأنت؟ ...

– تشرفنا... وأنا محمود...

ومدّ إليها يده يصافحها...

قالت تسأله:

– الآن وقد عرفت هذا الشباب (المجنون كما تقول)... ما رأيك ؟

– ستقرئين رأيي عندما تنشر الدّراسة...

– أحبّ أن أعرف رأيك الآن...

– بصراحة لست ضدّ (الفرفشة) من حين لآخر... لكن...

الضياع الدّائم أرفضه...

يجب أن يحدّد الإنسان خطوط حياته... اليوم وغدا... حتى لا تبتلعه مطبّات الحياة...

– مطبّات الحياة؟!!

قالت ذلك وأحسّت أن لِكلام محمود الأثر البالغ في أعماقها...

فقد شعرت وهي تستمع إلى حديثه...

أن تيّارا من النار يسري في عروقها فيسبّب لها أوجاعا دفينة...

– ألم يقصدها يا ترى بأقواله تلك؟ ...

إنها تعترف بخلاعتها واستهتارها وعربدتها...

وتعترف أيضا بانتمائها إلى هذا النوعِ من الشباب الذي ينام ويصحى على الضّياع...

ثمّ إنها تعترف كذلك أنها عاطلة... لا تعمل...

يعني عضو أشلّ في مجتمع بات يعمل ليل نهار كخلية نحل كبرى...

ولكنها لم تكن مستعدّة لمعرفة كلّ هذا منه...

فجأة! ...

أوقفت تيار تفكيرها...

ونظرت إلى محمود نظرة مغايرة ولم تقل شيئا...

كان بودّها أن تقول له:

– من تظن نفسك؟ ...

فيلسوف العصر؟ ...

ستكون دراستك مجرّد نظريات...

يجب أن تعيش مثل هذه الأجواء اللذيذة حتى تكتب عنها بصدق وموضوعية...

وودّت لو ثارت عليه أكثر...

لأنه عكّر عليها صفو مرحها ونشوتها...

وذكّرها بدون أن يقصد بفشلها في دراستها...

ذكّرها بعتاب أبويها وتوبيخهما لها على سوء سلوكها...

تذكرت كل ذلك وهي تنظر إليه يتكلّم كلاما ينفذ في القلب كالسهم القاتل...

فتمنّت لو أنها تقدر على تلقينه درسا لن ينساه أبدا...

وكأنّ الشاب فهم ما يدور بخاطرها...

فقرّر أن يواصل معها الحوار إثراء للتجربة...

ابتسم لها وقال:

– يبدو لي أن وموضوع الدّراسة قد أعجبك...

أليس كذلك ؟..

– طبعا... طبعا...

–إذن... ستساعدينني كثيرا على جمع بعض المعطيات...

ألقت عليه نظرة باردة وقالت كأنّها تسخر منه:

– ومن أين لي أن آتي لك بهذه ال....... ماذا قلت؟

– المعطيات... يعني حقائق... معلومات...

سكتت نادية ونكست رأسها برهة ثمّ رفعته قائلة:

– آه... طبعا... طبعا...

فابتسم ابتسامة الواثق وقال: مرسي! ...

لم يعرف هو أيضا لماذا أحسّ بنوعٍ من الفرح يسربل قلبه عندما وافقت على طلبه...

ولا كيف ورّطها في مشروعه...

فطفق يتحاور معها في كلّ القضايا المطروحة...

فيتناقشان ويلاحظان ويستنتجان...

في حين أنها كانت تخفي سأمها وجهلها للكثير من الحقائق والنظريات...

لكن بفضل إصرارها على مواصلة التجربة تمكنت من إخفاء ذلك على محمود... بجملة ما انفكّت تعيدها كلّما وجدت نفسها في مأزق:

– يبدو لي أن هذه... هي أحسن طريقة لمعالجة هذا الموضوع...

كانت تجامله لكنها كثيرا ما كانت تقول له عندما تقلق:

– أوه... آسفة لقد مرّ الوقت بسرعة يجب أن أعود الآن...

لكن في تلك المرّة... وقد همّت بتركه والرجوع إلى حلبة الرقص...

أمسك بيدها وقال في شبه همس:

– بصراحة... هل من الممكن أن نلتقي خارج هذا الإطار؟ ...

لم تتعجب كثيرا من سؤاله لأنها كانت تنتظره...

لكنها سألته كما لو كانت تجهل الأمر:

– لماذا؟ ...

– أحبّ أن أعرف رأيك الشخصي في الموضوع...

وأحسّت بشيء من الخيبة...

لكنها قالت:

– كل مساء في نفس المكان...

قالت ذلك وتركته وسارت عائدة إلى البيت وفي رأسها أسئلة كثيرة متداخلة...

– لست أدري لماذا صرت أشعر كما لو كنت مكبّلة ومرغمة على الوصول بهذه العلاقة إلى النهاية؟

أيّ رجل هذا الذي غيّرني فجأة؟ ...

لقد غيرني كلامه وعمل فيّ بقوة لم أشعر بها سابقا...

ولهذا... سأتمادى وقد بدأت...

قد يكون هو أيضا في حاجة ماسّة لمساعدتي...

لا أحد يمكن أن يستغني عن مساعدة الآخر...

أنا أريد له النجاح ولعله يتمنى لي السّعادة أيضا...

من الغد...

أسرعت نادية إلى علبة النزل قبل الموعد المعتاد. حتى تتمكن من تعويض ما فاتها من الرقص والضحك والمرح... قبل قدوم محمود...

أو كما كانت تقول أحيانا:

– قبل قدوم موسم القحط الجميل...

كانت ترقص في غبطة وجنون وتضحك كثيرا... كما لو اكتشفت أشياء عزيزة عليها... حرمت منها مدة طويلة... إلى أن أحسّت بالإرهاق...

فانهارت كما لو كانت وسط دوّامة من ضياع...

وأجهشت بالبكاء...

عندما فتحت عينيها على وجوه أصدقائها المحيطين بها...

لم تعرف كيف انتفضت واقفة تنظر بعينين زائغتين إلى إحدى زوايا المرقص تبحث عن شعاع...

وكما لو كان شيطان يطاردها...

ودون اعتذار من أحد...

خرجت من الملهى عساها تعثر على من غيّر اتجاه حياتها ودعاها إلى إتّباع المنعرج الوردي...

ولحدّ الآن لم تفهم (شلّة) نادية وأصدقائها في علب الليل الحمراء...

أيّ ريح مسافرة... طارت بصديقتهم التي كانت زينة سهراتهم الراقصة!؟

حالـة حبّ

– مساء الخير...

قالها... لأنه يكتب إليها الرسالة... مساء...

– صباح الخير...

قالها... لأن الرسالة... ربّما وصلتها... صباحا...

الليلة... قرر أن يسهر معها قليلا...

منذ لحظة... دخل مقهى باريس... جلس في الوسط تقريبا... ووجهه مقبل نحو الشارع الرئيسي... والمقهى غاص بالرواد... كالعادة...

وضع النادل أمامه... فنجان قهوته المركزة...

مرة أخرى... تمنى... لو أنها كانت هنا بجانبه...

وشعر... رغم وحدته الحزينة... بشيء من السعادة تغمره...

لقد فضل عمدا... البقاء وحيدا هذا المساء...

أولا ليكتب إليها...

وثانيا... لكي يجري على نفسه تجربة مثيرة...

وتساءل:

هل أستطيع أن أتخيل نفسي معك حقيقة... رغم هذا البعاد الذي يفصلنا؟ ...

أنت فعلا بعيدة عني... لكن...

أنت الآن هنا... معي... في هذا المقعد الفارغ... تتكئين في حلم على المنضدة... وعيناك الحلوتان... تنظران إليّ في وداعة...

وشعرك الحريري ينسدل كشلال إفريقي على كتفيك...

لولا خوفه من تعجب نادل المقهى... لطلب لها عصير برتقال...

ولوضعه أمام المقعد الذي يحتلّه خيالها الجميل...

لكنّه همس:

– لا يهم...سوف نحتسي القهوة سويا...

– اشربي... ودعيني أقبل آثار شفتيك على الفنجان...

ورأى أنّها تبتسم له...

فقال يسألها:

– لست أدري... ماذا تفعلين الآن... يا حبيبتي ؟ ...

وتألم لأنّه لا يستطيع الوصول إليها... رغم شوقه الجارف لرؤيتها...

وتساءل:

– ترى... هل تفكّر فيّ الآن... كما أفكّر فيها؟

– أتراها تنتظر رسالتي هذه... كما أحلم بوجهها القمري الرائع؟ ...

وأفاق على الضجيج يشتدّ في المقهى...

لكنّه لم يستطع الهروب منه...

وأحسّ من جديد أنّها هنا... أمامه... متألقة بجمالها وأناقتها وسحرها...

وتساءل مرة أخرى وهو يكتب إليها:

– ترى... هل سنكون معا... في مثل هذا اليوم من السنة القادمة؟ ...

تصوّري...

أنا وأنت في بيت واحد... ليس فيه غيرنا...

تصوري يا عزيزتي... أنا وأنت...

وأحسّ بالفرح يسري في عروقه كتيار ناري جارف...

وبشوق مجنون يدفعه إلى ضمّها واحتوائها بكل قواه...

وهمس في حلم:

– أعدك... بأن حياتنا معا... ستكون رائعة...

حتى أمسح كل الأشواك التي زرعتها في طريقك يا عزيزتي...

إنّه واثق من أنّه السبب أحيانا في أحزانها...

وربّما لولاه لكانت أكثر سعادة...

وعرف أيضا أنّه المتسبب الأول في معظم الأخطاء...

فهو الذي أحبّها وجعلها تحبّه... لكن؟ ...

ربّما أيضا هي التي أحبّته وجعلته يحبّها؟ ...

وتساءل في همس:

– ولكن... ماذا يهم؟ أنا أو أنت؟ ...

المهم هو أنهما يحبّان بعضهما بقوة وجنون نادرين...

التجارب... أثبتت ذلك...

فهل يهم بعد كل الذي حدث... نبش رماد الماضي وتعرية الأحزان؟!

– سوف أبقى أحبك دائما وإلى الأبد! ...

***

كان بودّه لو يواصل معها السهرة...

لكنّه أراد من الليل أن ينتهي بسرعة... حتى يطلع الصبح ويلقاها...

قال ذلك... وترك للنادل ثمن المشروب... وخرج مسرعا! ...

عندما وجد نفسه وحيدا على الرصيف...

أحس أن السماء الرمادية... الحزينة... تبكي مثله في صمت! ...

لم يعرف كيف وصل إلى مركز البريد الليلي...

ولا كيف دخل إليه...

نظرت إليه الموظفة... استقبلته بابتسامتها العريضة... وقالت:

– برقية... كالعادة؟!

ومدت إليه المطبوعة لتعميرها...

فأخذها وكتب اسمها وعنوانها وأضاف: أحبّك! ... وأمضى.

ثمّ أعاد إليها الورقة مع المبلغ المطلوب...

ابتسمت لها فتاة البريد ثانية وقالت:

– اطمئن... ساعة واحدة... وستكون عندها...

– شكرا... تصبحين على خير...

فأجابته حالمة في شبه همس وهي تشيّعه بنظراتها:

– تصبح على خير...

وابتسمت! ...

خرج...

سار على رصيف العودة...

وحيدا... وحيدا... إلا من خيالها العذب...

يلفّه شيء من ضباب الشوق...

شيء من ضباب الحزن...

تحت سماء رمادية... حزينة...

تبكي مثله في صمت!

اللقاء الآخر

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل...

مرة أخرى ... يصاحبه الأرق... حتى مطلع الفجر...

عندما شعر باليأس ... نهض من فراشه...

وهو لا يدري ما يفعل ...

وأخذ يفكر...

إنّ اللقاء العفوي الذي جمعهما صباح أمس...

أثّر فيه كثيرا...

ولم يعرف بالضبط... لماذا؟ ...

في رسالته الأخيرة إليها...

وصف لها شعوره كلما التقى بها وكلما فارقها...

لقد وضع تلك الرسالة في صندوق البريد مساء عندما خرج...

لكنّه رغم ذلك...

شعر برغبة ملحة تدفعه إلى الكتابة إليها من جديد في هذه الساعة المتأخرة من الليل...

السكون يغمر غرفته الصغيرة...

نظر من خلال زجاج النافذة إلى أطياف أغصان الأشجار وهى ترقص في الظلام...

قال لها في شبه همس:

– "الريح تعصف بقوة هذه الليلة يا عزيزتي...

لقاؤنا الأخير...

آه لو تعلمين كم أحببتك فيه يا معذبتي؟"

ولم يعرف...

لماذا يشعر بأشواك مجنونة تنغرس في قلبه...

كلما تذكر هذا الفراق المتجدد الواقف بينهما...

كان يريد البقاء معها غير أن ضرورة الفراق كانت أقوى من إرادته...

عندما افترقا... تساءل وهو عائد مع أحزانه:

– " لماذا افترقنا... لماذا ؟ ..."

كان واثقا... من أنّه لو استطاع أن يمنعها... أن يمنع نفسه من الفراق... لفعل...

ولكنّه لم يقدر... رغم الرغبة الجامحة التي كانت تدفعه نحوها في حب أقوى من الجنون...

قال يسألها:

- "ماذا أقول لك أيضا يا عزيزتي؟ ...

إنّ هذه الوحدة التي أحياها... وأنا بعيد عنك...

وذكريات لقائنا الأخير..

تزيد من حبي وشوقي إليك...

وتزيد من عذابي أيضا..."

وأحسّ بأنّ أجمل شيء هو...

أن يرحل عبر بهاء وجهها الساحر إلى حيث سيلقاها...

فعاد إلى فراشه ليعانق خيالها الرائع مع إطلالة الفجر الأزرق...

كانت الساعة التاسعة صباحا...

عندما فتح عينيه على عبث أطفال يلعبون في الشارع...

إنّهم كالطيور... يملؤون الدنيا حياة وسعادة...

في هذه اللحظة...

سمع نقرات خفيفة على باب غرفته...

ورأى وجه أمّه بابتسامتها العريضة وهي تتمنى له صباحا سعيدا وتحمل إليه فنجان القهوة...

- متعك الله بالصحة يا أماه...

- فقط...؟ وإذا زدتك شيئا يفرحك؟ ...

– ماذا؟ ...

– إن تلميذك الفرنسي لن يأتي اليوم؟ يبدو أنّه مريض...

– من أخبرك؟

– الآن... فقط... جاءت أمّه لإعلامنا...

– مصائب قوم...

– لا... لا تقل هذا...

– إنّك تستحقين قبلة... هاتي رأسك...

– فقط؟ ...

– ورطل (حلوى شامية)...

– اتفقنا... اشرب إذن قهوتك... ثمّ أخرج وتفسح...

لكنّه... لم يفعل...

وفضل أن يجلس إلى مكتبه ليكتب إليها ما عجز البارحة عن الإفصاح به والتعبير عنه...

ما أبشع أن يشعر الإنسان بالعجز عندما تكون عواطفه أكبر من كلماته...

قال لها:

– "عزيزتي... صباح الخير...

قبل كل شيء... أريد أن أعبّر لك عن سروري...

إن التلميذ الفرنسي الصغير الذي كان من المقرر أن أعطيه درسا خاصا في اللغة العربية لم يأت...

لقد جاءت أمّه الآن لتعلمني بهذه المفاجأة السارة...

– عزيزتي...

يبدو لي... أن هناك شيئا جديدا في حبي لك... أصبحت أحسّ به...

إنّه شيء رائع...

لا أستطيع أن أقول عنه أكثر من هذا...

أمّا عن تاريخ اكتشافه داخل نفسي...

فذلك يعود إلى صباح أمس...

عندما التقينا صدفة وسط الجماهير...

صدقيني إذا قلت لك...

إنّك بدوت لي... كما لو كنت امرأة خرافيّة...

لقد أحسست أنّ كلامك في الحبّ... أصبح معطّرا بروائح زهور الجزر الرائعة... وهمساتك أصبحت أكثر سحرا من كل العطور النسائية".

وأحسّ بسعادة كبرى تغمره وهو يفكر في كل هذه الأشياء...

ذلك ما كان يتمنّاه منذ زمان... ولم يعشه إلاّ بالأمس...

لقد شعر وهو يسير أو يجري معها تحت قطرات المطر الربيعية...

إنّه إنسان جديد...

إنسان في منتهى السعادة...

وتمنى لو أنّه يقدر أن يركب جنونه مرة واحدة في حياته حتى يصرخ وسط الجماهير وفي الهواء الطلق... هكذا وبكل حرية...

– أحبّك يا... زيّا...

وبدون أن يشعر...

أحسّ برغبة ملحّة في الخروج إلى المدينة... والسير وسط الجماهير...

ربّما دخل المقهى...

وربّما قرر مشاهدة شريط ما...

لكنّه سيشعر في كل الحالات...

بالفراغ يهز كيانه والأحزان تسربل قلبه...

وستبدو له كل الوجوه المحيطة به... أطيافا بلا معنى

وسيلازمه خيالها في كل مكان يدخله...

إن الوجود بدونها لا معنى له...

ولعل هذا سبب حزنه الدائم...

وتساءل:

– "لماذا رضيت مرة أخرى بهذا الفراق الجديد...؟"

لقد تفهم جيّدا قرار والدتها... وقدّره حق قدره! ولكن...

وابتسم في قرارة نفسه...

ثمّ همس في مرارة كأنّه يقول لنفسه:

– " لا تكذب..."

وأضاف كأنّه يخاطبها:

– " أنت تفهمين جيدا ما أعنيه يا عزيزتي...

فأنا لا أتصور أن لا أراك أبدا...

إن قبول الأمر الواقع يعني وقوفي على هوّة الحرمان...

والانتحار حزنا على عتبة جمالك الرائع مكسور الجناح...

قد يبدو قراري هذا جنونا...

ولكنّه الحقيقة المُرة يا عزيزتي...".

قال ذلك... وعاد في يأس إلى غرفته...

ليختلي بصورتها الكبيرة المعلقة فوق مكتبه...

ويغرق في رسائلها القديمة...

وسط زوبعة من عطر أحلام الأمس...

عبر لقاء لا يؤمن بالحواجز...

ذكريات للنسيان ...

لا أقدر أن أنسى هذا الحلم الذي حطم قلبي...

إن ذكراه المزعجة... تتبعني طول حياتي... وتخفي عن عيني بريق الحب! ...

***

في ذلك اليوم...

كنت أترقب أحمد في حديقة (الباساج) قرب النافورة المرمرية...

كان اليوم ممطرا...

ولكن رغم ذلك... كنت أترقبه بفارغ الصبر...

ترقبته طويلا...

حتى أنني لم أعد أميز بين دموع قلبي ودموع السماء...

وجلست على حافة الحوض عاجزة عن ترك المكان والرجوع من حيث أتيت...

– لست أدري... لماذا لم يأت؟!

ولما نفد صبري... قررت العودة! ...

وما أن وصلت أمام المسرح البلدي حتى صدمتني الحقيقة المرة...

– " أحمد وهاجر ؟!!"...

وبقيت انظر إليهما في دهشة قاتلة...

بينما غمرتني موجة من الخجل والألم...

– آه يا إلاهي... هذا لا يعقل...

***

ولما كان الغد...

التقيت بأحمد في ساحة الجامعة...

فراح يسهم بنظراته في بلاهة كمن يحاول أن يخفي شيئا...

ثم لم يلبث أن هز رأسه وقال:

– آسف لعدم حضوري البارحة يا ريم " لقد أرسلني والدي إلى ماطر لأقضي بعض الشؤون... الأمر الذي جعلني أعود متأخرا إلى البيت...

وتساءلت آنذاك...

– "كيف تجرأ أحمد على مزج الكذب والابتسام معا؟ ..."

فابتسمت أنا بدوري وقلت له في نفسي:

– " انظر جيدا، ابتسامتي هذه...

ولتكن دائما في مخيلتك...

حتى لا تنساها...

وحتى لا أخدع مرة أخرى"! ...

ولم أذكر لأحمد رؤيتي له مع هاجر...

وبقيت ألبي دعواته في كل مرة يضرب لي فيها موعدا... بوجه بارد كالمرمر...

قال يسألني:

ماذا حدث؟ لماذا تغيرت... أخبريني...

ولم أنبس ببنت شفة...

كنت كمن وضع على وجهه قناعا من جليد...

ولم يعرف مني حقيقة صمتي ويأسي... حتى حين أنظر في عمق عينيه وأهمس في حقد مكتوم.

- "لا تكذب"...

لست أدري...

لماذا أصبحت حين أشاهد عشيقين يتنزهان في مرح والحب يملأ قلبيهما ابتسم في سخرية وأقول:

- "ترقبا.. ستُبدي لكما الأيام الحقيقة المؤلمة.. وينقشع حلمكما اللذيذ..." ! ...

***

وذات يوم...

خلال أمسية راقصة نظمها صديق يدرس معنا...

تقدم مني شاب يدعي سليم...

خاطبني باسما:

– ريم... ما هذه العزلة التي حبست نفسك فيها؟ ... أين ابتسامتك الرائعة وأين رقصك الأنيق؟ ...

ابتسمت له ولم أقل شيئا فأضاف:

– أنا لا أرضاك أبدا على هاته الحالة... لذا فأنا أدعوك للرقصة الموالية...

وأردت أن أعتذر... لكن...

أسرع سليم فجذبني من يدي في مرح أشبه بمرح الطفولة وقال:

– هيا... هيا يا ريم... إلى الرقص...

فجأة شعرت بشخص آخر يجذبني نحوه قائلا:

– شكرا على حفاوتك بصديقتي يا سليم...

لكن هذه الرقصة لي...

أليس كذلك يا ريم ؟!

وقبل أن ينطق سليم بحرف واحد...

كنت بين ذراعي الشاب المجهول...

وتساءلت في شبه نشوة:

-"عجبا.. كيف عرف اسمي ؟ ... "

لا بد أن يكون وراء كل هذا... أشياء غريبة..."

فقد رأيت (الشاب المجهول) يتبادل وصديقتي هدى... النظرات والابتسامات...

- "لا شك أنه أخ لهدى ! ... "

أثناء الرقص كنا نقترب شيئا فشيئا من باب الخروج...

فكرت في الفرار من بين يديه... لكنني عدلت عن ذلك...

وفي لحظة وجدتني أنحني على أذن الشاب وأهمس:

- أظن أن هدى أرسلتك إلى نجدتي...

على كل حال شكرا...

بمقدورك الآن الرقص مع من تحب حقيقة فلربما...

وحين تبيّن دهشتي وارتباكي... قال لي بصوت دافئ:

- صدقيني... حين رأيتك أول مرة... لم أتمنّ الرقص إلاّ معك...

- لكن...

- اطمئني كنت استدعيتك من تلقاء نفسي... لو لم ترسلني أختي هدى إليك...

- ولماذا يا ترى؟ ...

– لأنك فعلا ذات جمال ساحر...

– ...؟! ...

وعلمت بعد ذلك... أنه يدعى خالد...

***

في أول الأمر...

وفي المرات العديدة التي كنت ألتقي فيها بخالد فرحةً باسمة سعيدة، كنت أتخيل... أن تلك الابتسامات... وتلك الهمسات هي لأحمد... حبي الأول...

وفي الأمسيات...التي كنت اجتمع فيها مع خالد على الشاطئ... أو في الحديقة... كنت عاجزة عن رد كلماته المعسولة الدافئة التي تتخلل سمعي في رقة وعذوبة...

فقط لأنني كنت أسمع صوت أحمد...

إلى درجة أنني بدأت أشعر أن قبلاته العديدة التي تلهب يدي ووجهي وشفتي... لا تزعجني...

بل بالعكس تعيد إليّ نشوة الأمس وحنينه...

وكانت أخت خالد... مسرورة جدا بصداقتنا...

فقد سمعتها تصرح:

– كنت على علم من أن (ريما) وخالد خلقا لبعضهما البعض..

***

وذات يوم...

كنت فيه وحيدة في المنزل...

سمعت جرس الهاتف يرن في عنف...

وما كدت أرفع السماعة حتى سمعت صوتا أعرفه...

– أهلا سليم...

وبلا مقدمات أخبرني قائلا:

– لن يكون مصيرك مع خالد أحسن بكثير من مصير الوردة التي ذبلت فطرحت....

في ذلك الوقت... تذكري جيدا يا حبيبتي أنني موجود للأخذ بيديك النّاعمتين...

وقلت له في خبل وأنا ألهث:

– أنت مخطئ يا سليم... هذا لن يحدث أبدا مع خالد...

ووضعت السماعة بقوة... وكل عضلة في جسدي تختلج...

– الوغد... النذل... الحيوان... كيف طاوعه ضميره على أن يحول بيننا؟ ...

ولقد كنت أمنع نفسي جاهدة... من الاجتماع بخالد على انفراد قرب النافورة المرمرية حتى لا أقع وجها لوجه مع ذكريات الماضي المؤلمة...

إلى اليوم الذي أصبحت فيه الأشياء... مسرحا للخزعبلات...

ورغم كل هذا...

فقد شاءت الأقدار يوما أن أجتمع به في نفس الحديقة وفي نفس المكان تقريبا...

كان يسألني:

– أما زلت تخشين الذكريات؟ ...

– ...

لست أدري... ما الذي منعني يومئذ من الكلام...

أحسست كما لو أن الأرض هوَت من تحت قدمي...

ولم افتح عيني إلا وأنا بين أحضانه ورأسي على صدره...

بينما تساقطت من بين أهدابي قطرات من دموع.. انحدرت على وجنتي في صمت...

– "سوف لن يعود ذلك أبدا...

ولن يكون في حياتي معك.. ذرة واحدة من الألم والحزن!"

وعندما طلب مني الزواج... تملكتني رعدة لذيذة وعقد لساني تردد خفي...

– أرجوك يا خالد... أمهلني قليلا من الوقت...

– يبدو أنك ما زلت أسيرة الماضي... أليس كذلك ؟ ...

– صدقني لم أعد أفهم حتى نفسي...

– ماذا تقصدين؟ ...

مع الوقت كل شيء سيتوضح...

وابتسمت له من خلال دموعي...

لكنني لم أستطع رغم ذلك أن أقول له الحقيقة...

حتى عندما أجبرني على الخضوع لقبلاته الجنونية التي لا تنتهي...

ولما كان الغد...

التقيت بسليم وقد شد على شفتيه ابتسامة رقيقة سرعان ما أخفاها...

قال لي في هدوء مثير:

– أراك تزحفين نحو الهاوية الجديدة...

– ومن أدراك بهذا؟ ...

– هذا ما أخبرني به وجهك الشاحب...

قال ذلك...

وأخذ يلتهم بنظراته الجائعة تقاطيع وجهي...

وسألني وعلى شفتيه نفس تلك الابتسامة الخبيثة:

– أليس هذه هي الحقيقة؟ ...

وظللتنا فجأة سحابة باردة من صمت ثقيل...

استرجعت على إثرها شجاعتي وهمست...

– " آه.. لو كنت تعرف الحقيقة... "

وهتف وهو يقترب مني أكثر...

– ماذا تقصدين؟ ...

وعبثا... حاول سليم أن يحصل على الجواب...

فلم يبق أمامه إلا أن يتبعني من بعيد...

وأنا أسير وحيدة إلا من أحزاني...

حتى إذا ما وصلنا إلى حديقة النافورة... استدار نحوي وقال:

– ستلتقيان هنا؟ ...

قلت له وقد تحول وجهي إلى قناع من جليد:

– نعم! ...

– ...

بدأت بعض قطرات المطر تتساقط... فشعرنا بازدياد الوحدة الثقيلة تملأ المكان... وأحسست بلسعات البرد تجتاح جسمي...

التفت إلي سليم وقال:

– اتركيني أضع معطفي على كتفيك.

لم أقل شيئا ولكنني رفضت عرضه...

لكنني لم أعرف كيف تحولت إلى تلك الفتاة الساذجة مع حبها المحطم... الغارقة في بقايا صور الماضي السحيق؟ ...

وبدون أن أشعر قلت:

– لقد قال أنّه سيلقاني هنا...

وليتني ما تكلمت...

قال سليم في لهجة مسترابة:

– لا شك أنّها منعته...

– من؟ ...

– السكرتيرة الجديدة... هل رأيتها؟ ...

– نعم... لكن... يستحيل أن يحدث هذا...

– معذرة إن كنت... أقصد...

فجأة! ... سمعت وقع أقدام على حصى المسلك...

التفت... فإذا به خالد...

– ريم.. ماذا تفعلين هنا؟ ... تكلمي...

– لحظة... لحظة وسأشرح لك الحكاية...

– الحكاية كلها أصبحت واضحة... ويبدو أنني كنت مغفّلا فعلا...

– قل لي أولا... لماذا تأخرت... ودعنا نتفاهم...

أخرج من جيب سترته أوراقا... سرعان ما قدمها إليّ وقال ثائرا:

– هذه الأوراق هي سبب تأخري...

– لم أفهم...

– لقد طلبت من الكاتبة أن تعلمك هاتفيا بأنني سأتأخر عن موعد اليوم... وهذه هي النتيجة... يبدو أنّه لم يعد لكل هذا أية فائدة الآن...

– لكن لماذا؟ ...

– وتسألين لماذا؟ ...

قال ذلك...

وأخذ يمزق الأوراق التي بين يديه في عصبية وجنون... وتركني وانصرف...

وقفت مشدوهة...

ملتاعة كما لو كانت أفعى رقطاء تتلوى في أحشائي ...

وبدون أن أشعر... انحنيت على بقايا الأوراق المبعثرة على الأرض...

أجمعها قطعة قطعة... فإذا بها شهادات التحاليل والمضامين الصالحة لعقد زواجي على خالد...

وفهمت كل شيء...

لكن... بعد فوات الأوان! ...

– "يا إلهي... إلى أي حد كنت غبية...

لقد عمل سليم كل ما في وسعه لتحطيم سعادتي"...

وكالطفلة الصغيرة التي تقبل دميتها المهشمة...

أخذت في تقبيل بقايا الأوراق والدموع تملأ عيني...

***

وذات يوم... وبينما كنت واقفة قرب النافورة... شعرت كما لو أنني كنت في حلم لا يصدق... بيدين تشدان كتفي في رفق...

التفتت... فإذا هو خالد يبتسم لي في حب...

– حبيبتي الغالية... تعالي معي... ودعينا نشكر القدر... لقد عرفت كل الحقيقة اليوم...

– لم أفهم...

– عليك أن تفهمي جيدا يا عزيزتي... أننا مازلنا لبعضنا...

قال ذلك... وأمسك بأناملي يمطرها بقبلاته...

– سامحيني يا عزيزتي... لم أكن أعرف شيئا عن ماضيك...

فلم أدر ما أقول...

فقد اختفت الكلمات مع الدموع في صدري...

وأوشكت أن أفضي إليه بإحساسي آنذاك... ولكن...

نظراتي التقت بنظراته الحارقة...

فترقرق الحنان في صدري...

وابتسمت وقلبي... يخفق في عنف...

قلت أسأله في حب جارف:

هل تحبني حقا؟ ...

لم يجب...

بل راح يتفحص وجهي في شغف...

ثم أحاطني بذراعيه وضمني إلى صدره بكل قواه وقال:

– آه لو تعرفين كم أحبك يا حبيبتي...

إنك أغلى كنز في حياتي...

أنت اللحن الذي كنت أبحث عنه منذ فجر حياتي...

وتفجر في صدرنا الهوى الجارف...

فملت برأسي على صدره...

بينما أخذ خالد يتحسس وجهي... ويداعب خصلات شعري في حنان...

ولم يفتش حبيبي طويلا عن شفتي... فقد شعرت وهو يقبلني في عنف...

من أنني انتصرت على الذكريات القديمة التي كانت تملأ خاطري...

وتعكر عني سماء حبي...

حبّ

منذ لحظة...

وصلته وريقاتها الورديّة الحبيبة...

وصولها في الوقت المناسب...

جعله يتمنى شيئا واحدا...

أن تكون رسالته السابقة... قد وصلتها أيضا... في الموعد المحدد! ...

لقد أصبح يجد في رسائلها... ذلك الدفء الذي كان ينشده...

وذلك الوجد الذي كان يتمناه...

لقد أصبحت فعلا: دميته الباريسيّة العذبة...

أصبحت... كما كان يتمنى أن تكون...

إن حبّها للقائه...

وتألمها لفراقه...

وكرهها للبعاد...

وتفكيرها الدائم... في العودة لرؤيته...

لمن الأشياء التي تزرع الدفء في عروقه...

وأحسّ...

بأنّه أصبح يحبّها أكثر من أي وقت مضى! ...

همس في نشوة حالمة:

– آه... لو تعرفين... كم أنا أحبّك يا عزيزتي...

أنا سعيد لبقائك هذه الصائفة قربي...

اطمئني...

سأحاول أن أنسيك حرارة الصيف...

لقد أعددت لك... برنامجا حافلا للقاءات وردية...

سنتحدّث طويلا... طويلا... ثرثرتنا التي لا تنتهي...

سوف نبني يا حياتي...

ذكريات أخرى للخلود...

وسوف نرسم للمستقبل...

طريقا للسعادة... لا يعرفه إلا العشاق...

– " زيّا"... يا حبيبتي...

قالها...

وأحسّ رغم عواطفه الجياشة... بالعجز يكبل قلمه...

وبشوقه المجنون لرؤيتها...

فشعر بالسعادة تغمره...

وبالأمل يحلق به إلى حيث خيالها

المسافر كالحلم... في سماء وجوده...

ابتسم...

اقترب أكثر... من خيال وجهها الرائع...

ليذوب عشقا...

في عمق عينيها العسليتين! ...

الاحتراق العذب

منذ لحظة...

وصلته رسالتها الوردية...

لقد انتظرها أسبوعا كاملا... كما تنتظر الأرض العطشى قطرة المطر...

لقد بدأ الانتظار...

منذ أن واصلته تلك البرقية الرمادية التي بعثت بها إليه وهي في حالة غضب ويأس وثورة... وندم! ...

وقتها...

كان على فراش المرض... والحمى تلهب جسمه في قسوة وألم...

الشيء الذي زاد من حزنه وقلقه وضيقه.

حقا... كانت الرسالة كقطعة من نار رمتها يدها من بعيد على جبينه المحموم...

ولم يعرف لماذا فعلت ذلك.

وهمس في مرارة كأنّه يسألها:

– لماذا فعلت هذا...

وأنت تعلمين أنّ اليد التي أحرقتني...

أحبّها كثيرا؟

أعاد قراءة رسالتها النارية القصيرة أكثر من مرة...

كأنّه يتلذذ بهذا العذاب الذي ما انفك يهدّ كيانه يوما بعد يوم...

ثم خبّأ الرسالة تحت الوسادة وحاول أن ينام.

***

ومع مرور الأيام فقد الرغبة في الطعام...

ولم يعد يرغب حتى في شرب عصير البرتقال الذي يحبّه كثيرا...

ولم تفهم أمّه السبب... لأنّه لم يبح لأحد بأسراره واكتفى بالصمت والتفكير...

وشيئا فشيئا بدأ يدافع عنها منه...

وشرع يخلق لها الأعذار...

حتى هدأت نفسه قليلا...

همس في قرارة نفسه:

– (لا شك أنّها ستراسلني من المهدية...)

وبقي ينتظر...

مر موزع البريد أمامه... مرة... مرتين... ثلاثا...

ولكن دون أن يتوقف...

فأصبح كذلك الذي ينتظر المحال...

حاول أن يوهم نفسه ببعض المجلاّت... لكنّه لم يفلح...

فعاد إلى صندوقه الصغير... ملجأ رسائلها...

وبدأ يقرأ...

كان يتعمّد ترك رسائل العتاب والغضب جانبا...

ولا يقرأ سوى رسائل الوئام والحبّ حتى يبقى يحبّها...

وبدون أن يشعر...

توقف عن القراءة... ونظر إلى اللا شيء في حيرة وهمس:

– " ترى... ماذا تفعلين الآن يا حبيبتي؟.."

وعندما أغمض عينيه... ليرى خيالها كالعادة...

تراءت له وهي تضحك وتلعب وتمرح مع صديقتها نجيبة...

فسرت في جسمه موجة من الحمى وعاوده الألم...

خلال الأسبوع الماضي...

حاول الكتابة إليها بأحزانه لكنّه لم يستطع لأنّه يجهل عنوانها...

وتألّم أكثر لأنّها لم تفكر ولو لحظة في الكتابة إليه من هناك...

ربما لأنّها لا تريد إعلان حبّها للناس...

أو ربما منعتها أشياء قاهرة عن مراسلته... من يدري...؟

وأحسّ أن من واجبه عدم لومها عن هذا التقصير...

ولم يسال نفسه لماذا؟ ...

- "عزيزتي"...

قالها في همس... ولم يدر كيف عاوده الحنين إليها فجأة...

اليوم وهو يقرأ الرسالة التي بعثت بها إليه عند عودتها من المهدية...

أحس بأنّ غضبها القديم مازال عالقا بقلبها...

وأنّ كلماتها لم تفقد بعد لونها الرمادي الحزين...

فرغم حديثها معه ورغم طول رسالتها...

شعر وهو يقرأ كلماتها بأنّها غير مقتنعة بما جاء في رسالته السابقة إليها...

فقد جاءت آراؤها ضبابية مرتجلة...

وفهم أنّها كتبت رسالتها في الصباح بدل المساء الذي عادت فيه من الرحلة...

وقد جاءت الخاتمة باردة... جافة بلا حبّ...

رغم ذلك... فقد فرح بها...

وجلس إلى مكتبه ليقرأها وليعيد قراءتها وهو على فراشه وفي الحديقة وفي كل مكان...

وشعر ببعض آثار الحمى التي أصابته... تنقشع شيئا فشيئا...

وبنفحة أمل رقيقة تسربل قلبه وتبعث فيه بوادر الأمل...

لكن سرعان ما عاوده شيء من الحزن...

فقد تذكر أن أول ما لفت انتباهه بعد ما قرأ رسالتها القصيرة...

تجاهلها للهدية الصغيرة التي بعث بها إليها...

لا شكّ أنّها وصلتها... لأنّها مضمونة الوصول ولا يمكن أن تضيع في البريد... وتساءل:

– لست أدري لماذا أصبحت تمرين بأشيائي الصغيرة دون اهتمام يا عزيزتي؟ ...

وتذكر كلمات نزار: " شؤون صغيرة...

تمر بها أنت دون التفات...

تساوي لدي حياتي...

جميع حياتي... "

فعاد إليه الحزن من جديد... وأحاطت به الهواجس من كل جانب...

– " المرأة كائن عجيب فعلا "...

وإلا لماذا كل هذا التكتم وهذه الأنفة ؟ ...

إنّها لم تحدثه حتى عن ظروف إقامتها بالمهدية وكيف أمضت أيام الرحلة...

إنها لم تفهم بعد مدى حبه الجارف لها... مدى حبه المجنون المدمر...

ولأوّل مرّة...

شعر في قرارة نفسه... بأنه يبالغ أحيانا في تصور الأشياء...

والسعيد في الحبّ من أخذ الأمور كما جاءته مبتسما...

وفي شيء من اللاّوعي...

ابتسم في مرارة...

وعاد ليعيد قراءة رسالتها النارية...

ليلتذّ بهذا العذاب الذي ما انفك يهدّ كيانه يوما بعد يوم...

النافذة والبساط

ستبقى الأربع وعشرون ساعة الأخيرة التي عاشها...

من أجمل وأروع وأقسى لحظات عمره...

بدأت كما بدأ فجر الحلم...

لكنهما اختارا أن يفترقا سريعا حتى يمر الزمن الفاصل...

حتى يلتقيا لقاءهما المنتظر...

لقاءهما الحلم...

ما أجمل أن يتوغل الإنسان في لجّة الجنون عندما يعشق! ...

ما أعذب أن يغرق في بحر الأحلام الوردية التي قد لا تتحقق! ...

***

ومضى الليل...

وهو ساهر على أمل أن يراها صباحا...

ما أطول ليالي الانتظار...

***

إنها رغم صورها الآتية من أفق الشوق لرؤيتها...

تبقى كرمز لرحلة دفء وأشواك وأسلاك ورهبة...

فتح حافظة أوراقه ونظر إلى صورتها وهمس:

- "سأنتظرك وأنت في خيالي...

زهرة ربيعية...

وفراشة ملونة...

وعطرا لذيذا..."

***

ولما أطل الصباح...

بدأ يعد بقايا الساعات الفاصلة...

أحس بشعور غريب...

هو مزيج من الحب والشوق والخوف معا...

وتساءل كطفل صغير كما لو كان يخاطبها:

- " ما هذا الذي أصبح يدنيني منك ويدفعني عنك في نفس الوقت"...

-...

- "إنّهما مد وجزر غريبان...

لا يمكن أن يفقه مداهما إلا من سار مثلنا على جمر الحرمان...

ولعل هذا ما زرع في قلبي الخوف عليك يا حبيبتي...

إن ما أصبح يربط بيننا من أحلام مجنحة...

يدفعني إلى اجتياز خطوط النار...

حتى أضمك بكل قواي إلى صدري...

وأقول لك... أحبك"...

***

تمنّى لو كانت أمامه حتى تسمع همسته الأخيرة...

وحتى لا تغضب فتقبل اعتذاره...

لأنه كان على يقين من أنّ انتظار شيء قد لا يأتي...

لمن أبشع ما يعيشه العاشق! ...

فآه... لو تستطيع فهمه كما يحب! ...

أغمض عينيه

وتخيلها في انتظاره عبر دقائق امتدت طويلة...

مملة كأسلاك الشوك...

قال في قرارة نفسه كما لو كان يخاطبها:

" عشت ساعات مماثلة يا عزيزتي تمنيت أن لا أراك بعدها...

تمنيت أن تبتلعني أرض النسيان...

حتى لا ألتقي بك إلا وقد انقشعت عنك سحب الغضب...

وعادت إليك ابتسامتك العذبة ونظراتك الحالمة...

ورقتك الساحرة..."

ثمّ أفاق فجأة من شروده وقال يسأل نفسه:

– ما هذا الذي يحدث بيننا؟ ...

أحاول أن أغالط نفسي...

أن أهذّب عواطفي...

فأكتفي بما يجمعنا لكن...

كثيرا ما كنت أتساءل:

ترى هل أنا الآن... في مستوى التجربة؟ ...

وأحسّ بأن القدر وضعهما في معادلة صعبة ورائعة...

معادلة قد لا تكون متكافئة... رغم ما أمكن توفيره لها من أسباب النجاح! ...

وقال محتجا:

– وأين لنا هذا... ونحن نعيش في مجتمع كالإسطبل! ...

قال لها كما لو كانت أمامه:

– إن ما اقترحته علي...

سيبقى ساري المفعول...

حتى ولو لم أعشه معك يا حبيبتي...

سيبقى أجمل ذكراك...

وسأحاول أن أعيشه مع خيالك الساحر...

زمن الصحو...

وزمن النوم...

وزمن الجنون...

فلا تتعجبي إن قلت لك:

– إنني حققت مساء أمس...

ما لم أحققه معك هذا الصباح...

قال ذلك وابتسم وبدأ يحلم...

***

نهض بكرة كما ينهض الطفل صباح العيد...

ليغسل أطرافه ويلبس أحسن ما عنده ويتعطر...

كانت بوادر انفعال السعادة ظاهرة على وجهه...

وتحركاته لم تكن عادية...

وخشي أن يلفت إليه الانتظار...

فمنذ مدة طويلة وهو يعيش على هامش الحياة...

وفي خضم المأساة!

ويبدو أنّها كذلك...

ولعل هذا ما جمع بينهما!؟

قال لها في شبه همس:

" الآن فهمت يا صغيرتي... إن ما ألف بين قلبينا وفكرينا...

هو تلك المعاناة الداخلية التي يحياها كل واحد منا"...

الآن فهمت سر تلك الضحكات المحبوسة التي كنا نطلقها ونحن نتحدث ونثرثر كالأطفال...

الآن فهمت! ...

وأحسّ كما لو أن صوتها الناعم يتناهى إليه من وراء البعد ليقول له:

" لقد أحسسنا فعلا أننا كنا من ضحايا هذا الزمن المشبوه...

لكننا قبلنا أنفسنا... فاخترتك بساطا لي واخترني نافذة لك...

وقررنا الانعتاق معا من هذا العذاب الذي بات يهدد أحلامنا وآمالنا باستمرار "...

قال يسألها:

– لكن كيف يمكن أن يلتقي الخريف بالربيع؟!

وهل يمكن أن يعانق فجر الأمل... بداية اليأس؟!

***

كان بوده لو تجاهل الواقع...

لكنه خاف أن يفتقدها يوما...

إذ... لا احد يتصور مكانتها عنده؟ ...

شدّ على شفتيه ابتسامة حالمة وهمس:

– فعلا... قد أكون البساط الذي يسافر بك إلى العالم الآتي...

وقد تكونين أيضا نافذتي الوحيدة لمعانقة أحلامي الضائعة... لكن...

– لكن ماذا؟

– أخاف عليك مني يا عزيزتي...

أخاف أن تري فيّ أشياء لا وجود لها...

– لا تقل هذا فأنا واثقة من شعوري نحوك...

– ربما لكن قد تحوّل الظروف الإنسان العادي إلى إنسان كامل...

وما هو في الحقيقة إلاّ بقايا إنسان...

– لا تقل هذا ودعني أحبك كما أشاء...

دعني أحبك كما أنت! ...

رغم ما حاول أن يزرعه في نفسه على امتداد السنين الطويلة...

من بذور الحب والوفاء والمثالية...

ما زال يشك في نفسه...

لأن الأنا الآخر ما زال يهدده ويظهره أحيانا على عكس حقيقته! ...

***

كل هذه الخواطر تبادرت إلى ذهنه هذا الصباح وهو يهيئ نفسه لملاقاتها...

والتمتع بحديثها العسلي...

ووجهها الصبوح...

وشعرها الحريري...

ونظرتها الحالمة...

وضحكتها الطفولية...

ونبرة صوتها الرائعة الآتية من لا يعرف من أين؟!

***

ولم يعرف كيف ضغط على فرامل عواطفه الجياشة التي اعتملت في داخله ليلة كاملة...

وهو ينتظر ولادة فجر جديد...

والحادية عشر من صباح فريد لا يمكن أن ينسى...

ورحلة وردّية ستبقى خالدة مدى الحياة...

محطة...

ولقاء...

وسعادة...

وحافلة تطوي المسافات بعيدا...

إلى أفق بلا وجوه...

ولا أقنعة ولا عيون...

وحوار دافئ مع امرأة ساحرة...

وتساءل في يأس:

– ترى هل سنلتقي حقا؟!

وسافر به الخيال إلى عالم بدا بعيدا... رائعا... لم يعد له وجود...

وتمنى أن لا تنتهي المسافة الفاصلة...

وأن لا يصلا إلى مدينة الضباب...

حتى يبقيا كطفلين سعيدين اختارا أن يغرقا في ثرثرة بلا حدود...

والعالم من حولهما يمر أو لا يمر...

فلا الصور يمكن أن تغير شيئا...

ولا الوجوه الكثيرة حولهما قادرة على طمس وجهيهما...

أو مسح سعادتهما...

قالت وهي تضحك:

– لم أكن اعلم أنك تعشق مدينة الضباب مثلي؟ ...

قال متعجبا:

– ومن قال لك هذا؟ ...

– اختيارك لوجهة هروبنا من طاحونة الشيء المعتاد...

– ثقي بأن ما يهمني هو قطع أي مسافة فاصلة وأنا بجانبك...

أنعم بثرثرتك الحلوة...

وأستنشق عطرك وإشراقك وبهاءك...

– فقط؟ ...

– إن السفر عبر موجات صوتك لمن أحلى الأشياء لدي...

وها أنها تتحقق لي في هذا الصباح الاستثنائي الجميل...

فتكلمي واضحكي ودعيني أحيا...

***

ما يؤلمه الآن....

وهو قريب منها...

هو هذا الحاجز الزجاجي الذي يقف بينهما...

كان يعرف أنها قريبة جدا منه...

لكنه واثق من أنها بعيدة جدا عنه...

وتساءل كما لو كان يصرخ

– "كيف أوفق بين طرفي علاقتنا المستحيلة يا معذبتي...

ومتى ستنهار هذه المسافة الفاصلة...

حتى ألقاك وأضمك إلى صدري بكل قواي..."...

كان يخاف إن هو اجتاز يوما خط الانبهار...

أن يفقدها نهائيا! ...

وهذا ما لا يرضاه أبدا...

صعب جدا أن يبقى الواحد منهما وراء الزجاج..

لأن ضباب أنفاسهما الحارة ستحجب عنهما الرؤية حتما! ...

وصاح يترجاها:

– دعيني أبتعد قليلا يا حبيبتي...

– لماذا؟ ...

– حتى أراك جيّدا يا حياتي...

سيبقى وجهك القمري قنديلي الوحيد...

وأنيسي في وحشتي القاتلة! ...

ابتعدي...

ودعيني أغمض عيني حتى أحتويك...

وأضمّك إلى صدري بكلّ قواي...

وأقبّلك...

وأحبّك كما أريد! ...

***

كان واثقا من أنها امرأة استثنائية لا يمكن أن يحبها حبا عاديا...

أو أن يلتقي بها لقاء عاديا...

فلوردة العشق...

حقها في اختيار كوب الكريستال الذي ستوضع فيه...

وإكسير الحياة الذي سترتوي منه...

***

ولم يدر كيف رفع بصره ونظر إلى الأفق البعيد:

– آه لو تتصوّرين كم هي بعيدة نجمتك في سماء وجودي...

وكم هو قريب مني ارتياحك لي...

لكن ترى هل أنا في مستوى حبك الجبار؟!

***

لقد تصور رحلتهما المستحيلة بكل تفاصيلها...

فغمرته سعادة لا توصف! ...

لكنه عاد فتساءل:

– ثم ماذا؟

فيعاوده الإحساس بالمرارة...

والخيبة...

والحزن...

والشوق إليها من جديد...

وعاد يسال نفسه:

- ترى ما هذا الذي أصبح يعمل في داخلي؟ ...
ماذا يمكن أن أفعله حتى لا أجتاز خط النار...
حتى لا أهشّم الحاجز البلوري الذي يفصلنا؟ ...

***

وأحسّ في مرارة أنه دون مستوى الأنا الآخر...

ولأول مرة أحس بانهيار داخل كيانه...

لم يعد يتبين من خلال أنقاضه ملامح ذاته الحقيقية...

وهذا ما دفعه إلى عدم المجازفة! ...

قال معتذرا في حزن:

معذرة يا صغيرتي...

فأنا في حيرة من أمر هذا الذي أصبح يشدني فعلا إليك...

لك أن تفهمي...

أن تتجاهلي...

أن تبتسمي...

أن تتعجبي...

أن تثوري...

لكن ليس من حقك أن تبتعدي عني...

فقط من أجل هذا الخيط الرفيع الذي بات يجمعنا كخيط حزمة حطب الموقد!...

كان يحس أنه لم يكن في مستوى حبها وعنايتها...

لكنه كان واثقا كذلك من حبه وخوفه عليها...

فإذا كان قد أخطأ...

فذلك إذن مصير كل علاقة مستحيلة قد تنشأ يوما...

بين نافذة وبساط!

البشير التلمودي في كلمات

- (1942–2008).
- بدأ الكتابة والنشر مع بداية الستينات.
- من علاماته المميّزة:
- إحساسه العميق بالطفولة لإيمانه بأن كلّ من لم يمت فيه الطفل يبقى نبيا.
- إيمانه الشديد بالحبّ... لأنه الوجه الآخر للحياة!

البشير التلمودي 1965

- نكرانه الدّائم للزمن... لأنه من أكلة لحوم البشر!
- تأجيله المستمر للأشياء... كما لو كان سيعيش ألف سنة!
- هذه المجموعة الأولى تضمّ بعض القصص التي كتبها ونشرها في الجرائد والملاحق والمجلات بداية من سنة 1959 على أمل أن تعود الرومانسية إلى الأدب ويغمر اللّون الوردي كل العالم...

***

– يقول عنه الناقد فرج لملوم: «عمد الكاتب إلى الصور والأساليب البلاغية للتعبير عمّا يخالج وجدانه... فاستعمل التشبيه لتجسيم حالة نفسية بصورة حسّية...والملاحظ أن المعجم الوجداني... يمزج بالتأمّلات الفكرية... فيستحيل نبض القلب قادحا للفكر... إن من العشق كحكمة: أن تحبّ أو لا تحبّ... تلك هي المسألة».

(*الصباح*، **1995/02/14**، ص. **12**).

– وقال عنه القاصّ صالح الدّمس: «في السبعينات... اعتقدت وأنا أطالع هذه النصوص أن كاتبها شاب في مقتبل العمر... وكنت أظنّ أنّه ربّما يكون أصغر مني لما تحويه تلك النصوص من حماس شبابي... ومشاهد المراهقة وصفاء الطفولة».

(*الحرية*– الملحق الثقافي، **1996/06/13**، ص. **4**).

– وقال عنه الروائي: محمد آيت ميهوب: «الأديب البشير التلمودي... ثلاثون سنة من القصّ... ثلاثون سنة من رؤية العالم بعيني طفل».

(*الحرية* – الملحق الثقافي، **1997/02/02**، ص. **7**).

– وقال عنه الأديب: علي بن مصطفى: «وهو في كلّ ما يكتب... هادئ رصين... بسيط اللّفظ... جميل الصّورة... لا يميل إلى شاذّ أو إلى غريب...».

(*الحرية*– الملحق الثقافي، **1998/03/12**، ص. **9**).

– ويقول عنه الشاعر البشير المشرقي: «نحن لا نملك إلا أن نشدّ على يديّ هذا المبدع الذي يبهرك بتواضعه الكبير وبصدقه المثير وبإبداعه الزاخر بالحركة والحياة... نبعا ثريّا لا ينضب أبدا ومعينا لا يجفّ... مادام القلب نابضا بين الحنايا... هازئا بدقات السّاعة وانسيابات الزمن...»

(*الصّباح*، **1999/12/01**، فكر وفنّ، ص. **10**).

– وقال عنه الشاعر عزالدين الشابي فرحات: «ستبقى شابا على الدّوام... لأن اليأس لم يستطع أن يلج إلى قلبك... ولم تتمكن الأيام من إغراقك في أتّونها... ولم يستبد بك القلق... ولم تعر حساب السّنين أهميّة...».

(الحرية– الملحق الثقافي، **2000/08/03**، ص. **10**).

– وقالت عنه الأستاذة لطيفة الزغلامي: «في كلامه... أدلّة توحي بتنوّع تجاربه... وتفرغ كتابته وإن كانت تتجمع في نقطة اتصال لا يمكن تحويلها أو التحيّل عليها... إنّها الإبداع».

(*مجلة الإتحاف*، **2001/11/18**، ص. **33**).

المؤلفة في سطور

- آمال سفطة
- من مواليد 1957.
- أستاذة جامعية اختصاص علوم ثقافية.
- لها مسيرة فنية في مجال المسرح والتلفزة والسينما.
- مولعة بالشعر باللغتين العربية والفرنسية وبالترجمة.
- متحصلة على جائزة ترجمة أغاني شعبية تونسية للأطفال من مكتبة أوبارفيلي (**Aubervilliers**) بباريس سنة **1983**.
- أول تونسية تشارك بلوحة فنية "الغيرة" في صالون الفنانين الفرنسيين سنة **1987** بالقصر الكبير (**Champs-Elyssées/Paris**).
- متحصلة على جائزة عمل تشكيلي "نشيد الأبواب"، باريس، دار تونس، ماي **1988**.
- متحصلة على الجائزة الدولية للترجمة، اليونسكو، بباريس سنة **1999**، عن قصيدة "النبي" للشاعر ألكسندر بوشكين.

- متحصلة على جائزة أحسن ممثلة من طرف الإتحاد الوطني للمرأة التونسية في مارس 2008.
- متحصلة على الوسام الوطني للاستحقاق الثقافي، تونس، 2010.
- متحصلة على الوسام الوطني للاستحقاق الثقافي، تونس، 2013، (لم تتسلمه).
- تم تكريمها من طرف مركز البحوث والدراسات والتوثيق والإعلام حول المرأة (الكريديف)، بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي للمرأة، تونس، 2015.

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية...

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكتروني بشـــــراكة مـــــع جــــروب ملتقـــــى الأقـــــلام المُبدعـــــــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

المحتويات

الإهداء 6
باربارا كارتلاند: إمبراطورة الأدب العذري 7
الرّؤية القصصية عند البشير التلمودي 10
قبل البدء 15
لذّة الشوق 16
الحبّ والموت 22
العشق بالأظافر 42
هُيـــام 59
النـدم 67
الطفل والعروس 79
الأخطاء السّعيدة 95
دمية زيّا 108
صديقتي الصغيرة 116
باربارا يا حبيبتي 139

الخيال والصورة...152
الأغنية الحزينة 157
بقايا صور 168
المنعرج الورديّ...178
حالـة حبّ..190
اللقاء الآخر 195
ذكريات للنسيان ... .202
حبّ 216
الاحتراق العذب 219
النافذة والبساط...225
البشير التلمودي في كلمــات 239
المؤلفة في سطور 243

البشير التلمودي

- ولد بالمتلوي سنة 1942، وتوفي بتونس العاصمة سنة 2008.
- بدأ الكتابة والنشر عام 1959.
- كتب القصة القصيرة والقصيدة النثرية والومضات والشذرات والتأملات الفلسفية وأكثر من 1500 رسالة حب للمرأة التي أحبها.
- من صفاته: عدم إيمانه بالزمن وتأجيله الدائم للأشياء كما لو أنّه سيعيش ألف سنة.
- طفولته المفعمة بالبراءة والتسامح لإيمانه بأنّ من لم يمت فيه الطفل يبقى نبيًّا.
- توقه الدّائم لنشر الحبّ ونبذ الكراهيّة لإنقاذ هذا الإنسان المهزوم زمنَ الصّحو والمسلوب زمن النوم.
- عضو اتحاد الكتّاب التونسيين
- متحصل علي وسام الاستحقاق الثقافي.

آمال سـفـطة

- من مواليد 1957.
- أستاذة جامعية اختصاص علوم ثقافية.

دار بسمة للنشر الإلكتروني
bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com